الوثيقة

العدد الرابع عشر - السنة السابعة
جمادى الثانية ١٤٠٩هـ - يناير ١٩٨٩م

دورية تاريخية محكمة

يصدرها
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين

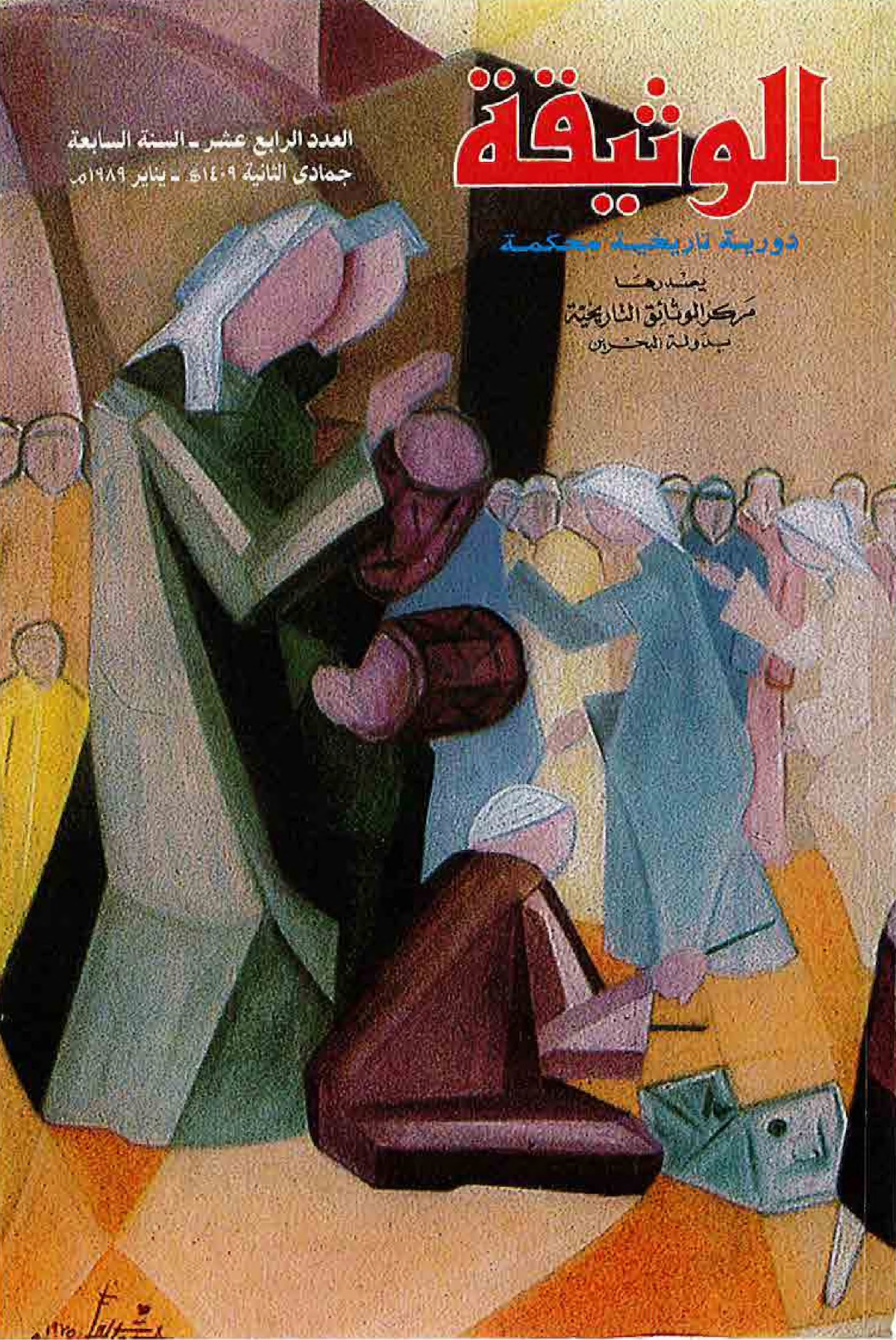

بسم الله الرحمن الرحيم

الوثيقة

دورية نصف سنوية

تصدر عن

مركز الوثائق التاريخية

بدولة البحرين

رئيس التحرير

الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

العدد الرابع عشر ـ السنة السابعة
جمادى الثانية ١٤٠٩هـ ـ يناير ١٩٨٩م

لجنة المجلة

الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

الشيخ خالد بن محمد آل خليفة

الشيخ عيسى بن محمد آل خليفة

الدكتور علي أبا حسين

الإشراف الصحفي

السيد أحمد حجازي

العنوان : مركز الوثائق التاريخية ص . ب ٢٨٨٨٢
تليفون : ٦٦٤٨٥٤
جميع المكاتبات ترسل باسم رئيس التحرير .

صورة الغلاف :

(العرس) للفنان حسن الشريف

من دولة الامارات العربية المتحدة

الفهرس

الموضـــوع صفحـــة

○ **كلمة العدد**
بقلم : الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة ٩

○ **صفحات من تاريخ تعليم المرأة فى البحرين بين ١٩٠٥ ـ ١٩٦١م**
بقلم : الدكتور علي أبا حسين ١٢

○ **البرتغاليون فى شرق افريقيا وطردهم منها**
اعداد : عبدالرزاق علي عثمان ٣٠

○ **من علوم العرب البحرية ـ الاهتداء بالنجوم فى ظلمات البحر**
بقلم : حسن صالح شهاب ٦٢

○ **الوثيقة .. وأهميتها فى الدراسات التاريخية .. مع دراسة لمختارات من المادة الوثائقية من مركز الشرق الاوسط . جامعة اكسفورد**
بقلم : الدكتور سامي عبدالحافظ القيس ٧٨

○ **الأسس الاقتصادية للاستعمار البرتغالى فى الخليج العربي فى القرنين السادس عشر والسابع عشر**
بقلم : الدكتور محمد عارف الكيالى ١٠٦

○ **أصداء الغزو البرتغالى فى ادب الخليج العربى**
بقلم الدكتور : علي أحمد الزبيدى ١٢٦

○ **الخليج العربى الأهمية الاستراتيجية وملامح السياسة البرتغالية**
بقلم الأستاذة نوار عبدالوهاب قاسم القيسى ١٥٤

الموضوع صفحة

○ النظام الدولي الاقليمي فى دول الخليج خلال فترة الاستعمار البرتغالى
بقلم : الاستاذ الدكتور حامد ربيع ١٧٠

القسم الانجليزى

○ دراسة فى المنشورات والوثائق عن الغزو والسيطرة البرتغالية فى الخليج العربى
بقلم : دكتور طارق نافع الحمدانى ٢١٧
○ ابن ماجد .. ودوره فى اكتشاف الطريق البحرى الى الهند ومظاهر التفكير العلمى فى كتاباته
بقلم : الدكتور حسام الخادم ٢٣٥
○ كلمة العدد
بقلم الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة ٢٣٩

جميع الابحاث المنشورة في هذا العدد تمثل وجهة نظر كاتبها
(الوثيقة)

كلمة العدد

بقلم : الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

طرح خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود أمام المؤتمر الأول لوزراء الاعلام بالعالم الاسلامي الذي عقد مؤخرا بالمملكة العربية السعودية موضوعا في غاية الأهمية . فقد أشار العاهل الكبير إلى أن المؤرخين والاعلاميين دأبوا على إطلاق اسم الوهابيين على مواطني المملكة وأكد على أن ذلك يعتبر تركيزا على مسميات فرعية بعيدة عن الأصل الكبير واللواء الشامخ الذي ينضوى تحته الجميع وهو الاسلام فالكل مسلمون ذلك هو الاساس وذلك هو الاسم الواحد والصفة العظيمة التى يجب أن يتصف بها الجميع وأن يتسمى بها الجميع وأن يحملها الجميع بكل فخر واعتزاز.

ولقد كان لتوجيه خادم الحرمين الشريفين صدى عميقا في نفوس القيادات الاعلامية الاسلامية التى شاركت في المؤتمر وفي نفوس الملايين الذين تابعوا اعمال هذا اللقاء الكبير. ذلك التوجيه أو تلك الاشارة التى صدرت عن عاهل المملكة العربية السعودية مهد الاسلام العظيم انما يحتاج الى أن تواصل القيادات الاسلامية التأكيد عليه في خطط مستقبلية تتجه لشرح ما يتضمنه من المعاني وهي كثيرة وما يدل عليه من علامات وهي عديدة. وما يوحي به من اتجاه خير وهو عميق. ذلك أن المؤتمر ضم كل القيادات الاعلامية في الدول الاسلامية وهي القيادات التى بيدها توجيه هذا القطاع الهام والخطير في حياة الانسان المعاصر.

إن الاسلام العظيم رغم ما تعرض له طوال تاريخه من هجمات

ضارية وحروب متوالية. الا أن هذه الهجمات وهذه الحروب لم تستطع أن تنال منه أو تهز من صموده. و إنما الذي نال منه في فترة أو أخرى إنما كان الهجمات التي تأتيه من الداخل وقد كانت الهزائم العسكرية التى منى بها المسلمون في بعض حلقات تاريخهم نتيجة لهزائم أخرى سابقة حدثت بين صفوفهم. هذه الحقيقة أدركها جيدا أعداء الاسلام لذلك كان معظم اهتمامهم منصبا على تفتيت الصف الاسلامي. وهذا التفتيت أخذ اتجاهين رئيسيين استهدفا الدعامتين الكبيرتين اللتين قامت عليهما قوة الدولة الجديدة. منذ بدأ إنشاء هذه الدولة على عهد الرسول الأعظم هاتين الدعامتين هما وحدة الدين ووحدة الأمة. فقد كان العرب يعبدون آلهة متعددة وكانت الأمم التى دانت بالاسلام تدين بأديان وعقائد متباينة. وكان العرب قبل الاسلام قبائل شتى متقاتلة متصارعة تفتك بها النعرات الجاهلية والتفاخر بالأنساب والأحساب وكانت الأمم التى دانت بالاسلام تنهكها الحروب الداخلية بين مختلف الجنسيات والقوميات والأصول والمتناقضات. وعندما جاء الاسلام نادى بالدين الواحد وبالإله الواحد ونادى بالمساواة بين الجميع ونبذ الفرقة والشتات وجعل من كل المسلمين أمة واحدة ذات دين واحد. وبذلك جعل منهم قوة انطلقت لا يقف في طريقها شيء. قوة الاسلام إذن اعتمدت على وحدة الدين ووحدة الأمة. فكان من الطبيعي أن تتجه جهود أعداء الإسلام إلى هذين المصدرين من مصادر القوة. وأخذت هذه الجهود كما قلت سابقا اتجاهين رئيسيين.

الاول: هو تفتيت الدين فكان أن تسللت الدعوات المشبوهة وتسللت المذاهب والتيارات الفكرية وظهر العديد من المسميات ترفع شعار الاسلام وهي أبعد ما تكون عن الاسلام. وظهرت تيارات أخرى لمواجهة هذه التيارات والدفاع عن الاسلام وهي الأخرى حملت مسميات جديدة وشبت عشرات الحروب المذهبية في ضراوة وعنف واختلط الصحيح بغير الصحيح ولم يعد أحد يميز وسط الزحام بين من يريد بالاسلام شرا ومن يريد للمسلمين صلاحا.

والثاني: هو إثارة النعرات العنصرية. ونشأت الصراعات على السلطة بين مختلف الجنسيات وتحولت الأمة الواحدة إلى جبهات

متعددة وأخذ المسلم يرفع السيف في وجه أخيه وتبددت القوة الواحدة وتوقف المد الاسلامي الزاحف.. وأصبحت الساحة خالية من الحشد الكبير وزحف الاعداء هذه المرة في ذكاء شديد. يذكون نار الفتنة وباستمرار حتى لا يخمد أوارها. وكانت مأساة الأمة.

هذه في سطور قلائل اسباب القوة وأسباب الضعف ومن هنا كانت كل دعوة لتوحيد الصف ونبذ المسميات المتعددة هي دعوة في الاتجاه الصحيح ومن هنا أيضا تأتي أهمية هذا الاعلان العظيم الذي أعلنه خادم الحرمين الشريفين. وهو الإعلان الذي يضع أمام مسئولى الاعلام والمؤرخين دورا كبيرا يقوم على شرح أهميته والتركيز على حملة اسلامية تنطلق من تصريح العاهل الكبير حملة تدعو لنبذ المسميات الجانبية والتركيز على مسمى واحد هو الاسلام والبدء بحركة تصحيح شاملة يتم التركيز فيها على رفع شعار الاسلام وحده دون باقي الشعارات حتى يتحقق للجميع حلمهم الكبير في الوحدة الاسلامية الشاملة التى تتسمى باسم واحد هو الاسلام والتى ترفع شعارا واحدا هو الاسلام والتى تعمل لغاية واحدة هي عز الاسلام .

والله ولى التوفيق..

عبدالله بن خالد آل خليفة

البرتغاليون في شرق أف

تطبيق مبدأ الأخوة الإسلامية
خلق الترابط العضوي
بين شرق أفريقيا والخليج العربي

يرتبط الغزو البرتغالى للعالم الاسلامى بسلسلة من الغزوات والنكبات التى توالت على العالم الاسلامى كله آنذاك . سواء فى مركزه (العراق ـ الشام ـ مصر) او فى اطرافه فى آسيا وافريقيا وشبه جزيرة ايبيريا. منها الغزو المغولى الذى استهدف الوجود الحضارى الاسلامى نفسه . والخطر الصليبي الذى سبقه وعاصره ثم عاش بعده . وبالرغم من انتهاء الوجود الصليبى فى الشام عام ١٢٩١م[١] الا ان الروح الصليبية كانت متقدة فى الغرب المسيحى عامة ، وفى شبه جزيرة ايبيريا خاصة . فى هذه الفترة كان للاسلام وجود فى الاندلس ، حيث لعبت البرتغال دورا اساسيا فى سلسلة الحروب الصليبية الطويلة ضد المسلمين فى الاندلس حتى تم طردهم الى الشمال الافريقى . فلاحقهم البرتغاليون واستولوا على سبتة عام ١٤١٥[٢] . وكانت النتيجة ان وضع البرتغاليون اقدامهم لأول مرة على الارض الافريقية الاسلامية ، مما زاد من حماسهم لمواصلة الزحف على العالم الاسلامى كله . ثم ازدادوا غيرة وحقدا بعد سقوط القسطنطينية فى يد المسلمين عام ١٤٥٣م[٣] .

ريقيا وطردهم منها

اعداد :

عبدالرزاق على عثمان

وفى بحثنا هذا سوف نتناول بايجاز دوافع البرتغاليين فى توجههم نحو الشرق . ويهمنا هنا التعرض لدوافعهم الدينية والاقتصادية ونغض الطرف عن الدوافع الاخرى . ننتقل بعد ذلك الى الوجود البرتغالى فى ساحل شرق افريقيا وكيف تم ، ونسير خطوة خطوة مع بعض رحلات البرتغاليين نحو الشرق . ثم نعالج فى آخر المطاف موضوع تصفية الوجود البرتغالى فى شرق افريقيا . ويهمنا هنا ابراز التلاحم العضوى بين مسلمى شرق افريقيا والخليج العربى مما كان له اثر حميد فى تطبيق مبدأ الاخوة الاسلامية ، فبمجرد ان استغاث مسلمو شرق افريقيا بمسلمى الخليج العربى لبى العمانيون تلك الاستغاثة ، فتوحدت القوتان الاسلاميتان ، وبذلك تم طرد البرتغاليين من شرق افريقيا وعادت السيادة الى

ايدى المسلمين فى تلك البقاع . وفى آخر هذا البحث سوف نعرض بايجاز لمركز الاسلام فى ساحل شرق افريقيا والقرن الافريقى قبل مجىء البرتغاليين وحتى الآن .

دوافع الاكتشافات الجغرافية البرتغالية :

لقد امتزجت الدوافع الدينية امتزاجا يكاد يكون كليا مع الدوافع الاخرى لدى البرتغاليين فى كشوفاتهم الجغرافية للدوران حول افريقيا. بل ولا نبالغ ان قلنا ان البرتغاليين قد سخروا كل الدوافع الاخرى لتحقيق اغراضهم الدينية . وفيما يلى سنتعرض لدوافعهم الدينية والاقتصادية فقط وهى :

الدوافع الدينية :

١ ـ السعى الى هدم الحضارة الاسلامية واقامة حضارة مسيحية محلها .

وذلك بتخريب الحرمين الشريفين ونشر المسيحية واحتلال الاماكن المقدسة فى فلسطين واستعادة القسطنطينية[٤] .

وكانت البرتغال مدركة صعوبة تحقيق ذلك عن طريق الهجوم على العالم الاسلامى من الغرب ، حيث دولة المماليك فى مصر والشام ومجاهدو البحر فى شمال افريقيا والدولة العثمانية الصاعدة فى آسيا الصغرى التى ازدادت قوة وهيبة بعد فتح القسطنطينية[٥] . فكان لابد لهم من كشف طريق آخر للالتفاف على العالم الاسلامى من الخلف .

ومن هنا نرى وجود علاقة وثيقة بين انهاء الوجود الصليبى فى الشام وطرد المسلمين من الاندلس وفتح القسطنطينية من جهة، وبين الكشوفات الجغرافية البرتغالية للدوران حول افريقيا من جهة اخرى، لأن احد اهم اهداف المغامرات الكشفية البرتغالية كان من اجل تحقيق الاهداف الصليبية الانفة الذكر . ولعل حماس البابوية الكاثوليكية للكشوفات الجغرافية البرتغالية خير دليل على اهدافها الصليبية . ففى عام ١٤٥٤م اصدر البابا «نيقولا الخامس» منشورا ايد فيه جهود هنرى الملاح الكشفية، كما اعطاه حق غزو جميع الشعوب والاقاليم التى يسودها اعداء المسيح[٦] .

وقد نهج سائر البابوات فيما بعد نفس نهج نيقولا الخامس فى تحمسهم للكشوفات الجغرافية البرتغالية . وقد اشار الى غلبة الروح الصليبية على تصرفات البرتغاليين كتاب مسلمون من امثال «زين الدين» فى كتابة «تحفة المجاهدين» اذ قال (ان بغيتهم العظمى وهمتهم الكبرى قديما وحديثا تغيير دين المسلمين وادخالهم فى النصرانية نعوذ بالله من ذلك[٧] . كما نستدل على ذلك ايضا من نوايا الملك عما نويل الأول (١٤٩٥ ـ ١٥٢١) الذى حدد أهداف اول حملة برتغالية الى الشرق بقوله «ان الغرض من اكتشاف الطريق البحرى الى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق»[٨] .

اضافة الى ان الامير هنرى الملاح الذى اشتهر بروحه الصليبية وعدائه الشديد للاسلام كان قد نذر نفسه لهزيمة الاسلام «تماما ونهائيا»[٩] .

وتظهر الروح الصليبية البرتغالية بصورة عملية فى سلوك البرتغاليين مع

المسلمين فى المناطق الاسلامية التى احتلوها ، ذلك انهم ما ان حلوا ببلد فيه الاسلام الا وطبقوا فيه نفس النهج الذى طبقوه فى الاندلس ، وذلك بقتل المسلمين دون تمييز، وحرق المساجد وهدم البيوت واغراق السفن بمن عليها ومحاولة احلال الدين المسيحى محل الاسلام .

وقد خص البرتغاليون هذه المعاملة الوحشية بالمسلمين دون سائر الاقوام الاخرى . من هنا نرى ان اى تقليل من شأن الدافع الدينى للحركات الكشفية البرتغالية حول افريقيا لهو امر ينافى الواقع بل ويتعارض مع الحوادث التاريخية فى تلك الفترة .

٢ ـ البحث عن برستر جون (Pre-ster John)[١٠]

انتشرت فى اوروبا خلال القرن الثانى عشر اسطورة القديس يوحنا، وهى اسطورة ادبية ، تدور حول بطريق مسيحى، أسس امبراطورية مسيحية قوية فى الشرق ، يحكمها ملك مسيحى قوى، يخوض حربا مريرة ضد المسلمين المحيطين به . وبمرور الزمن تطورت هذه الاسطورة فى اوروبا حتى تجسدت فى القرن الثالث عشر وما بعده بصورة امال للاوروبيين فى ايجاد تحالف مع هذه المملكة المسيحية ، التى ساد الاعتقاد فيما بعد على انها الحبشة . وقد امن الاوروبيون ان هذه الحروب التى تخوضها مملكة برستر جون انما هى جزء من الحروب الصليبية التى يمكن بواسطتها تقويض العالم الاسلامى .

ولما كانت الروح الصليبية هى المحرك الاول للمغامرات الكشفية البرتغالية، فقد اهتمت البرتغال بالبحث عن برستر جون قبل غيرها من الدول الاوروبية حيث ارسلت عام ١٤٨٧ بعثتين لاكتشاف موقع هذه الامبراطورية المسيحية[١١] . ثم توالت بعد ذلك جهود برتغالية اخرى للوصول الى مملكة برستر جون بغرض ايجاد تعاون وثيق معها ضد المسلمين . وهذا ما تم خلال الحروب الصومالية ـ الحبشية فى القرن السادس عشر[١٢] .

ويلاحظ هنا ان الدوافع الدينية للكشوفات الجغرافية برمتها كانت متداخلة ومترابطة لأنها كلها كانت تهدف الى شىء واحد وهو القضاء على الاسلام دينا وحضارة، شعوبا ودولا .

الدوافع الاقتصادية :

يصادف الباحث صعوبة بالغة فى ان يجد خيوطا فاصلة بين الدوافع الدينية والاقتصادية لدى البرتغاليين فى كشوفاتهم الجغرافية للدوران حول افريقيا ، لأن دوافعهم الاقتصادية كانت مسخرة لتحقيق اهدافهم الدينية ، ومع ذلك قد تتمثل دوافعهم الاقتصادية فى حاجتهم للوصول الى مصادر السلع الشرقية والحصول عليها بأسعار اقل ، وكذلك المشاركة فى أرباح التجارة الشرقية وكسر احتكار المسلمين للعمليات الاقتصادية التجارية الشرقية .

وكانت البرتغال مدركة تماما استحالة تحقيق ذلك طالما ان الحركة الدائمة للتجارة الشرقية تمر عبر اراضى المسلمين

وتقوى من شوكتهم بما تدره عليهم من صافى الارباح والضرائب، وغيرهما من الفوائد المالية ذات الصلة بتجارة الترانزيت . لأجل ذلك فكر البرتغاليون بجدية ونشاط فى البحث عن طريق اخر يوصلهم الى الهند ولا يمر بديار المسلمين ليتمكنوا من السيطرة على تلك التجارة بغرض الحصول على فوائد مزدوجة وهى تقوية مركزهم سياسيا واقتصاديا واضعاف المسلمين بعد تحويل التجارة عنهم تمهيدا للقضاء على الاسلام .

لم يقدم البرتغاليون على هذه المشاريع الطموحة عشوائيا ، وانما اعدوا العدة لذلك علميا، فاهتموا بأمور البحر والملاحة، وأرسلوا البعوث الكشفية ودرسوا تقاريرها. كما جمعوا ما أمكن جمعه من كتب الرحلات، واهتموا اهتماما خاصا بالاطلاع على مجهودات المسلمين فى الاندلس فى نواحى الملاحة والفلك[١٢] . وبذلك حصلوا على معلومات جغرافية وبحرية مما مكنهم فى النهاية من اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، فتحولت التجارة الى الطريق الجديد وبالتالى فقد المسلمون مصدرا هاما من مصادر قوتهم مما ادى الى ضعف بنائهم السياسى والاقتصادى .

لم تكن افريقيا فى البداية هدفا[١١] برتغاليا من الناحية الاقتصادية (وان كانت هدفا دينيا) وانما كانت وسيلة للوصول الى الهند . غير ان تفكير البرتغاليين تجاه افريقيا الشرقية تغير تغيرا جذريا بعد وصولهم هناك اذرأوا فيه انه يتيح لهم مزايا اقتصادية ودينية على النحو الآتى : -

١ - وجدوا فى المدن الاسلامية الساحلية اسلاما حضاريا ذا جذور عميقة، ونظم سياسية وادارية راقية فقرروا القضاء عليه وكان هذا مكسبا دينيا .

٢ - وجدوا فى المدن الساحلية مجتمعات اسلامية ترفض الولاء لهم فاضطروا الى الشروع فى نشر المسيحية بكل السبل حتى يخلقوا لانفسهم مراكز تدين بالولاء لهم فانشئوا الكنائس ومدارس التبشير وتدفق الجزويت على شرق افريقيا وكان هذا مكسبا دينيا .

٣ - وجدوا فى المدن الساحلية تجارة راقية واقتصادا مزدهرا فقرروا السيطرة على هذه العمليات الاقتصادية وكان هذا مكسبا اقتصاديا .

٤ - بعد وصولهم استحوذتهم فكرة نقل الافارقة الى البرتغال كخدم وعبيد للنبلاء والاسر الارستقراطية فى البرتغال استرضاء لهم او مكافأة لمساهمتهم المالية فى الحملات العسكرية والاكتشافية وقد تطورت هذه العملية الاستغلالية البشعة فيما بعد الى ما يعرف بتجارة الرقيق وكان هذا مكسبا اقتصاديا وسياسيا .

٥ - احتكروا تجارة السلع الافريقية وفرضوا على السكان عدم التعامل مع غير البرتغاليين وكان هذا مكسبا اقتصاديا .

٦ - ان وصولهم الى شرق افريقيا قد قلص المسافة بين اوروبا والحبشة مما يتيح لهم سهولة الاتصال بالحبشة والتحالف معها لتحقيق

الآتى : -

أ - وضع المسلمين فى شرق افريقيا بين فكى كماشة ، البرتغاليون من البحر والحبشة من البر ، وقد طبقوا ذلك فى الحرب الحبشية - الصومالية فى القرن السادس عشر .

ب - محاولة اشتراك القوتين معا للهجوم على مركز العالم الاسلامى من الجنوب وكانت تراود البرتغاليين فى سبيل ذلك المشاريع الآتية[١٥] : -

١ - اشتراكهما معا فى ضرب مدينة السويس باعتبارها مركزا للعمليات العسكرية الاسلامية .

٢ - السعى لاقناع ملك الحبشة بقبول فكرة تحويل مجرى النيل ليصب فى البحر الاحمر بدلا من المتوسط .

٣ - السعى لاحتلال مدينة مكة حتى يمكن القضاء على الاسلام .

٧ - ان الطريق الجديد بين اوروبا والهند يحتاج الى اقامة محطات وحصون لحمايته وتزويد السفن التجارية والأساطيل البحرية البرتغالية بالمؤن اللازمة مما حتم عليهم البقاء فى شرق افريقيا، وكان بقاؤهم فى تلك البقاع مكسبا سياسيا واقتصاديا ودينيا لهم .

وهكذا أملت الظروف التى استجدت لدى البرتغاليين بعد وصولهم الى شرق افريقيا اتخاذ الاجراءات اللازمة والتدابير الضرورية لاحتلال شرق افريقيا وتحويله الى مناطق برتغالية. وبذلك بدأ الوجود البرتغالى فى شرق افريقيا .

الوجود البرتغالى فى شرق افريقيا

يحسن بنا عند الحديث عن الوجود البرتغالى فى شرق افريقيا ان نتتبع جهود البعثات الكشفية والحملات العسكرية البرتغالية، وان نسير خطوة خطوة مع تلك الحملات العسكرية لنتعرف على كيفية الاحتلال البرتغالى لتلك المناطق ، وقد استغرق احتلالهم للساحل زهاء عشر سنوات ، ذلك ان كل حملة عسكرية كانت تخضع سلطنة او منطقة ثم تغادرها وتأتى حملة اخرى وتفعل مثلما فعلته الاولى . ولم يجازف البرتغاليون بترك حاميات عسكرية فى المراحل الاولى لوصولهم الى الساحل لأنهم لم يجدوا حليفا محليا يعتمدون عليه باستثناء سلطان مالندى الذى تحالف معهم املا فى مساعدتهم للقضاء على ممبسة . وفيما بعد بدأ البرتغاليون فى اقامة المحطات وبناء الحصون وترك حاميات عسكرية فى تلك الحصون وذلك تمشيا مع بروز اهمية الساحل لهم .

وهكذا استمر الحال باحتلال تدريجى للساحل الى ان تمكنوا فى النهاية من اخضاعه ، وبذلك كانت الجهود الكشفية البرتغالية بداية عهد جديد بين اوروبا من جهة وافريقيا وآسيا من جهة اخرى الى ان بسط الاوروبيون نفوذهم السياسى والاقتصادى على السواحل الافريقية والآسيوية [١٦].

لم يصل البرتغاليون الى شرق افريقيا بيسر وسهولة ، وانما تم ذلك نتيجة لجهود جبارة قاموا بها وتحملوا فى

سبيلها العناء والمشاق وصولا الى اهدافهم . وكان احتكاكهم بشمال وغرب القارة قد سبق احتكاكهم بشرقها ، ففى عام ١٤١٥م احتلوا سبته، وأصبح الأمير هنرى الملاح (١٣٩٤ ـ ١٤٦٠) حاكما عليها[١٧] .

ومن المعروف ان هنرى الملاح هذا قد قام بدور بارز فى تكوين الامبراطورية البحرية البرتغالية وكان من اشد المتحمسين لمحاربة الاسلام . وقد خطط لتكون سبته قاعدة لشن الحملات العسكرية على المسلمين فى شمال افريقيا . وقاد بنفسه حملة حاولت احتلال طنجة عام ١٤٣٦م . وفى عهده وصلت الحملات البرتغالية الى الرأس الأخضر عام ١٤٤٦ ، ومصب نهر السنغال وسيراليون عام ١٤٦٠ واجتاز البرتغاليون خليج غانة عام ١٤٧١، وتمكنوا من اكتشاف مصب نهر الكونغو عام ١٤٨٢م .

يبدو ان الحملات البرتغالية بشمال وغرب القارة لم تؤد الى تحقيق اهدافهم، مما ادى الى محاولة توغلهم نحو جنوب القارة، فقام برتليمو دياز برحلته المشهورة عام ١٤٨٦م، وتمكن من الدوران حول رأس الرجاء الصالح الذى سماه براس الزوابع بسبب مالاقاه من اهوال[١٨] . ولعل ذلك كان احد اسباب اتجاه البرتغاليين بعد ذلك الى الابحار غربا عبر المحيط الاطلسى للوصول الى الهند . غير ان فشلهم فى كشوفاتهم عبر الاطلسى ، بعكس الاسبان الذين نجحوا فى كشوفاتهم عام ١٤٩٢م زاد من غيرتهم، فعادوا ثانية الى مسالكهم السابقة ، حيث قام فاسكودى جاما برحلته المشهورة عام ١٤٩٧ مقتفيا اثر سلفه دياز فاجتاز رأس الرجاء الصالح[١٩] .

وكانت رحلة دى جاما بداية عهد جديد حيث ترتبت عليها فيما بعد آثار بعيدة المدى فى العلاقات ما بين اوروبا والشرق كله ، وعلى كل فقد وصل دى جاما الى موزمبيق عام ١٤٩٨ ، ويقال ان اهلها استقبلوه بحفاوة ظنا منهم ان البرتغاليين مسلمون ، الا ان هذه الحفاوة اختفت على الفور بعد ان علم المسلمون هناك ان البرتغاليين قوم من النصارى . وقد غادر دى جاما موزمبيق بعد ان تزود ببعض الادلاء متوجها الى كلوة غير انه لم يرسو فيها فتوجه الى ممبسة ولكن سفنه رست فى مالندى .

اقام دى جاما فترة فى مالندى وطد خلالها علاقات التفاهم والود مع سلطان مالندى، ثم شق طريقه عبر المحيط الهندى فى طريقة الى الهند مستعينا ببعض عرب الساحل كما يقال ووصل الى الملبار .

وجد دى جاما وجودا عربيا قويا فى الملبار ولم يرغب فى الاصطدام معهم ، مما دفعه فى التوجه الى كانانور وجوا. ومن هناك تمكن من شحن سفنه لأول مرة بالسلع الشرقية من مصادرها الأصلية ، وعاد الى بلاده مباشرة عن طريق مقديشيو التى ضربها بالمدافع وهدم كثيرا من منازلها ، كما اغرق عددا كبيرا من السفن الراسية فى ميناثها . ومر بمالندى التى تزود منها بالمؤن، وزنجبار، وجنوب افريقيا. ووصلت طلائع سفنه الى لشبونة فى يوليو ١٤٩٩م .

استقبلت لشبونة دى جاما استقبالا

لائقا به كبطل فاتح مظفر. وهكذا حصدت البرتغال، ومعها اوروبا كلها، فوائد الكشوفات الجغرافية. وتحققت احلام اوروبا فى الوصول الى مصادر السلع الشرقية دون المرور ببلاد المسلمين .

اتجهت السياسة البرتغالية فى عهد الملك عما نويل الاول (١٤٩٥ ـ ١٥٢١) الى احتلال الساحل الشرقى لافريقيا، خاصة وقد ظهرت اهميته بالنسبة للبرتغاليين بعد النجاح الذى لاقاه دى جاما فى رحلته الى الهند ، كما اتجهت سياستهم الى احتلال ثلاثة مواقع هامة وهى : ملقا . وعدن، وهرمز باعتبار هذه المواقع مفاتيح للبحر الاحمر والخليج العربى وجنوب شرق أسيا[٢٠] .

وتنفيذا لهذه السياسة الاحتلالية توالت الحملات العسكرية البرتغالية الواحدة تلو الاخرى ، بهدف احتلال شرق افريقيا، واقامة محطات وحصون من اجل تأمين الطريق الى الهند . ففى عام ١٥٠٠ احتلت حملة دياز مدغشقر وموزمبيق[٢١]. وقاد كابرال فى نفس السنة حملة مكونة من ثلاثة عشر مركبا مزودة بالمدافع والمعدات العسكرية الاخرى، وعليها ١٥٠٠ رجل ، فوصلت الى موزمبيق فى يوليو وتوجهت الى كلوة حيث سلم كابرال رسائل من ملك البرتغال الى السلطان ابراهيم سلطان كلوة الذى رفض قبول السيادة البرتغالية[٢٢] . واتجهت الحملة بعد ذلك الى مالندى حيث تم انزال شخصين برتغاليين الى البر الافريقي بهدف البحث عن الحبشة تمهيدا للتحالف معها . واصلت الحملة بعد ذلك طريقها الى الهند .

لم تتوقف حملات البرتغاليين الى الشرق ففى مارس ١٥٠١ منح دى جاما لقب اميرال البحار الشرقية ، وتوجه فى فبراير ١٥٠٢ الى افريقيا الشرقية بخمس عشرة سفينة يتبعها اسطول من خمس سفن. ولما وصل كلوة قصفها بكل عنف وقسوة، مدمرا جزءا كبيرا منها وفرض عليها قبول السيادة البرتغالية ودفع الجزية لهم. ولكن بمجرد ان غادر دى جاما «كلوة» تنصل سلطانها من التزاماته للبرتغاليين. ومن كلوة اتجهت الحملة الى مالندى واستولى البرتغاليون على السفن الاسلامية الراسية فيها.

وكان البوكرك مهندس احتلال ساحل شرق افريقيا. ففى عام ١٥٠٢ احتلت حملته مدينة كلوة وارغم سلطانها على الاعتراف بالسيادة البرتغالية والتعهد بدفع جزية قدرها الف وخمسمائة مثقال من الذهب. وفى عام ١٥٠٣ فرض على زنجبار السيادة البرتغالية ودفع جزية قدرها مائة مثقال من الذهب . اما مدينة ممبسة فقد استسلمت بعد ان دافع عنها سكانها دفاع الابطال المجاهدين ، وبعد ان فشلت فى اقناع مالندى للوقوف بجانبها .

وفى عام ١٥٠٥ عين دالميدا اول نائب لملك البرتغال فى الهند وقد اعاد تأكيد الاحتلال البرتغالى لشرق افريقيا وهو فى طريقه الى الهند فقام باقامة حصون عسكرية فى مينائى كلوة وممبسة[٢٣] .

وفى عام ١٥٠٦ خرج اسطول برتغالى من موزمبيق لاحكام السيطرة على ساحل افريقية الشرقية فتوجه الى مدغشقر وكلوة ومالندى ثم احتل مدن لامو ، واوجا ، وبراوة التى رضيت بدفع جزية للبرتغاليين[٢٤] .

اما مقديشيو فقد فشل البرتغاليون في احتلالها ثم اتجهوا الى سوقطرة واحتلوها . وكانت الخطوة التالية في احكام السيطرة على ساحل شرق افريقيا هي الاحتلال الرسمي لموزمبيق الذي تم عام ١٥٠٧ . وأقيم فيها قلعة ومستشفى وكنيسة ومنشآت عسكرية اخرى وبذلك اصبحت موزمبيق أهم مركز برتغالي في شرق افريقيا واستمرت كذلك حتى عام ١٦٧٩م ولم يبق امامهم للسيطرة على ساحل شرق افريقيا كله سوى مدينة مقديشيو .

لقد أدرك البرتغاليون ان بقاءهم في ساحل شرق افريقيا لن يخلو من تهديدات طالما بقيت الجزيرة العربية خارج مناطق نفوذهم ، وذلك لوجود ارتباط عضوي وثيق بين شرق افريقيا وبين الجزيرة العربية التي كانت تمده عبر التاريخ بالمدد البشري والحضاري والديني[٢٥] ، فاتجه البرتغاليون لاحتلال الخليج العربي وعدن وذلك لقطع الصلة بين شرق افريقيا والخليج ثم لإحكام السيطرة على منافذ البحر الاحمر والخليج العربي . وبعد أن تمت لهم عملية احتلال مسقط وهرمز اضافة الى هزيمة القوات المصرية في معركة ديو البحرية عام ١٥٠٩ سيطر البرتغاليون على المحيط الهندي والطرق البحرية المؤدية اليه أو الخارجة منه[٢٦] .

وهكذا سيطر البرتغاليون على ساحل شرق افريقيا في مدة زمنية محدودة وانتقلت السيادة من أيدي المسلمين الى أيدى الصليبيين المتعصبين . وأصبح مصير المدن الاسلامية اما قبول السيادة البرتغالية أو القضاء عليها وتدميرها ما عدا مالندى حليفة البرتغاليين . وكان البرتغاليون قد أنشأوا في بعض مدن الساحل مستعمرات رئيسية مثل : كلوة وموزمبيق وسوفالا ، كما انشأوا مستعمرات اخرى أقل شأنا في مناطق اخرى مثل زنزبار وبمبا . اما بقية المدن فقد احتفظت ببعض نظمها المحلية مقابل قبول السيادة البرتغالية عليها ودفع الجزية لهم . وكان تمركز الحكم البرتغالي في المدن الجنوبية أكثر من المدن الشمالية لاعتبارات مناخية واقتصادية .

كانت السياسة البرتغالية الرسمية فيما يتعلق بشرق افريقيا ترتكز على احتلال الساحل ، وتدمير الوجود الاسلامي في هذا الساحل ، والسيطرة على الحركة التجارية الاسلامية ، ولم تفكر اطلاقا في توسيع مستعمراتها نحو الداخل لأن ذلك يتطلب تجهيزات عسكرية وادارية مما قد يسبب عبئا ماليا ، اضافة الى شعورهم بصعوبة الدفاع عن المراكز البرتغالية اذا كثر عددها وتباعدت المسافة بينها ، خاصة وان البرتغال كانت تعاني من قلة في عدد السكان . وعموما فإن البرتغاليين كانوا مدركين ان التوغل في الداخل عملية كثيرة التكاليف في الرجال والمال . فحصروا أنفسهم في الساحل مما جعل القوى الوطنية تنمو في الداخل بعيدا عن ارهاب البرتغاليين . وعلى كل فقد بقى البرتغاليون في ساحل شرق افريقيا حتى اواخر القرن السابع عشر . وقد مارسوا خلال هذه الفترة أشد انواع الاضطهاد للمسلمين والسعي الجاد الى توحيد القوى المسيحية في تلك المنطقة سعيا للقضاء على المسلمين . وقد تجلى ذلك حين هب البرتغاليون لمساعدة الحبشة في

حربها ضد الصوماليين بقيادة الامام أحمد بن ابراهيم (جرى)[٢٧] في النصف الأول من القرن السادس عشر ، حيث اشتركت في الحرب قوة عسكرية برتغالية مكونة من اربعمائة جندي مسلحين بالاسلحة النارية بقيادة «كروستوفر» مما ادى الى هزيمة القوات الاسلامية الصومالية في عام ١٥٤٠ ، غير ان المسلمين استعانوا بالاتراك في اليمن والحقوا الهزيمة بالاحباش وحلفائهم وقتل «كروستوفر»[٢٨] ، غير ان الحلفاء المسيحيين تمكنوا مرة اخرى من هزيمة المسلمين وقتل الامام .

كيف تمكن البرتغاليون من احتلال شرق افريقيا ؟

من المعروف تاريخيا ان الوجود الاسلامي والعربي في ساحل افريقيا الشرقية (وليس هنا مجال بحثه) كان وجودا قديما ، وذا معالم حضارية بارزة ، وقد اعترف بذلك البرتغاليون ومن وصل بعدهم من الاوربيين الى تلك المنطقة[٢٩] . ومع ذلك فقد آلت سيادة الساحل الى البرتغاليين بمجرد وصولهم في نهاية القرن الخامس عشر ويرجع ذلك الى الاسباب الآتية [٣٠] :

١ ـ قام الوجود العربي الاسلامي في ساحل شرق افريقيا على اكتاف المهاجرين والعلماء والتجار وكان وجودا حضاريا واقتصاديا ولم يعتمد على التوسع الحربي ، وبذلك لم تكن لديه قوات عسكرية يعتمد عليها في حالات الخطر .

٢ ـ كانت المدن الاسلامية في الساحل غير موحدة سياسيا بل على العكس كانت المنازعات والمنافسات محتدمة فيما بينها ولعل ما كان بين مالندي وممبسة خير دليل على ذلك .

٣ ـ كانت الدول الاسلامية الكبرى آنذاك على خلاف فيما بينها ، فالدولة العثمانية لم تكن على وفاق لا مع الدولة المملوكية في مصر والشام ولا مع الدولة الصفوية في ايران ، وبذلك لم يجد الشعب المسلم في الساحل الشرقي الافريقي من يسنده ليقف في وجه الغزو المسيحي البرتغالي .

٤ ـ كان البرتغاليون يتسلحون بأسلحة تفوق الاسلحة التي كانت متوفرة للسكان والمدن الاسلامية في ساحل شرق افريقيا .

طرد البرتغاليين من شرق افريقيا :

كان الوجود البرتغالي في ساحل شرق افريقيا يمثل بحد ذاته تحديا للوجود الاسلامي في تلك المناطق ، لكونه وجودا صليبيا اتصف بالقسوة والعنف لتحقيق اغراضه الصليبية ، بحيث لم تنج مدينة من مدن الساحل من عبث الطغاة البرتغاليين ، فقد أحرقت ممبسة مرات عديدة وقصفت كلوة ومقديشيو وبراوة وبربرة وزيلع كما دمرت مساجد لامو وباتا[٣١] .

هذه الاعمال الوحشية الصليبية المتمثلة في تدمير المدن ، وهدم المساجد ، وقتل المسلمين وحرق بيوتهم ، والاستيلاء على السفن والمتاجر الاسلامية واقامة المنشآت العسكرية والتبشيرية ، وارغام المسلمين على اعتناق المسيحية ، قد أدت الى هجرة اعداد غفيرة من المسلمين الى داخل القارة ،

حيث وجدوا الأمان والقبول من السكان المحليين فامتزجوا بهم ، مما كان له أكبر الأثر في انتشار الاسلام ، وتوحيد مشاعر العنصرين لمواجهة الخطر البرتغالي[٣٣] .

ومهما يكن فان الوجود البرتغالي بساحل شرق افريقيا كان في الاساس مرفوضا من قبل الاهالي ، لاعتبارات دينية واقتصادية وقومية وان بقاءه كان مرهونا لحين استرداد القوى الاسلامية المحلية انفاسها من هول مفاجأة الغزو البرتغالي .

ونرى هنا ونحن بصدد طرد البرتغاليين من شرق افريقيا ان نحدد ذلك في المنطقة ما بين رأس دلجاو جنوبا حتى مقديشيو شمالا ، ذلك لأن الوجود البرتغالي في موزامبيق قد بقى حتى عام ١٦٧٩، كما ان وجودهم الى الشمال من مقديشيو كان وجودا ضعيفا لعوامل متعددة لسنا في سبيل بحثها . ولكن قبل كل شيء لا بد وأن نشير بايجاز الى بعض العوامل التي كانت مبعث الثورات في شرق افريقيا والتي أدت في الوقت نفسه الى ضعف الحكم البرتغالي ليس في شرق افريقيا فحسب وانما في الشرق كله منها[٣٤] .

١ ـ سوء الادارة البرتغالية في المناطق المحتلة .

٢ ـ سوء السياسة التجارية الاحتكارية التي طبقها البرتغاليون في المناطق المحتلة .

٣ ـ بعد المسافة ما بين البرتغال والمناطق المحتلة واضطرارها باستمرار الى ارسال الحملات العسكرية لاخماد الثورات الوطنية مما شكل عبئا على مواردها المالية .

٤ ـ خضوع البرتغال للحكم الاسباني ابتداء من ١٥٨٠ واهتمام الاسبان بمصالحهم لا بمصالح البرتغال[٣٥] .

٥ ـ تصدي الدولة العثمانية للسيطرة البرتغالية على الخليج العربي والبحر الأحمر واحباطهم المحاولات البرتغالية لاقامة حلف مسيحي حبشي ـ برتغالي .

٦ ـ المقاومة الاسلامية المستمرة في المناطق المحتلة واتصالاتها المستمرة بالدولة العثمانية طلبا للعون العسكري باعتبارها حامية الاسلام .

٧ ـ ظهور قوى اوربية أخرى في بحار الشرق كمنافسة للبرتغاليين خاصة الهولندية والانجليزية اللتين كانتا أكثر تنظيما وتسليحا من البرتغاليين[٣٥] .

٨ ـ تمركز الوجود البرتغالي في الساحل دون العمق ترتب عليه نمو القوى الوطنية في الداخل ، لذلك كان الداخل عموما مركزا للعداء المستمر للمستعمر البرتغالي .

٩ ـ ظهور قوة جديدة في الخليج العربي وهي دولة اليعاربة في القرن السابع عشر التي تحملت مسئولية الصراع البرتغالي ـ الاسلامي[٣٦] .

ولا شك ان تصفية الوجود البرتغالي في شرق افريقيا كان يمثل صورة مشرقة من صور التعاون والعمل الاسلامي المشترك للوقوف في وجه العدو المشترك ، فالى جانب المقاومة الوطنية شاركت دولة اليعاربة في عمان مشاركة فعلية في تصفية الوجود البرتغالي في شرق افريقيا ، بينما كانت الدولة العثمانية مصدر الهام وعون لتلك الحركات الوطنية ، وفيما يلي نستعرض بايجاز دور كل قوة من تلك القوى الاسلامية ، سواء كان دورا

مباشرا أو غير مباشر وهي :

دور دولتي المماليك والعثمانيين :

على الرغم من أن كلا من دولتي المماليك والعثمانيين لم تساهما مساهمة مباشرة وفعلية في طرد البرتغاليين ، الا انه مع ذلك لا يجوز اغفال دورهما - خاصة الدولة العثمانية - باعتبارهما القوتين الاسلاميتين اللتين تصدتا للوجود البرتغالي في المحيط الهندي . وكانت الدولة العثمانية أكثر من دولة المماليك مصدر الهام وعون للثورات الوطنية باعتبار حامية الاسلام والمسلمين .

كانت دولة المماليك أكثر الدول الاسلامية الكبرى آنذاك شعورا بخطر البرتغاليين خاصة فيما يتعلق بمحاولاتهم تحويل طرق التجارة الى رأس الرجاء الصالح ، مما كان يعني توجيه ضربة قاضية للمصالح الاقتصادية والعسكرية والسياسية لدولة المماليك[٣٧] ، لذا كان طبيعيا ان يثير النشاط البرتغالي في تلك المناطق ثائرة المماليك ، الذين قاموا لمواجهة ذلك بنشاط سياسي وعسكري فاتصلوا بالبندقية وبالدولة العثمانية وبامراء المسلمين في الهند[٣٨] ، كما قاموا باستعدادات عسكرية وشرعوا في بناء السفن في السويس وأرسلوا الحملات تلو الحملات . غير ان مجهوداتهم تحطمت عند هزيمة ديو عام ١٥٠٩[٣٩] . وكانت النتيجة ان اتخذ المماليك خططا دفاعية في سواكن وزيلع على الجانب الغربي من البحر الاحمر وسهل تهامة وجدة كخط دفاع أول وثان على جانبه الشرقي .

ولما حلت الدولة العثمانية محل الدولة المملوكية ورثت عنها تركة ثقيلة فيما يتعلق بمواجهة البرتغاليين الذين سيطروا قبل ان يظهر العثمانيون في البحر الأحمر على مناطق شاسعة في شرق افريقيا والهند والخليج العربي . ويلاحظ ان الموقف العثماني لمواجهة الخطر البرتغالي لم يكن فعالا بالقدر المطلوب في البحر الأحمر ، ذلك انهم وجهوا معظم حملاتهم العسكرية نحو اوربا خاصة باتجاه جزيرة رودس وبلغراد والمجر مما ادى الى تفاقم الخطر البرتغالي في المحيط الهندي وشرق افريقيا والخليج العربي .

وليس هنا محل بحث المواقف العثمانية تجاه البرتغاليين بصورة عامة ، وانما نشير بايجاز الى موقفهم فيما يتعلق بشرق افريقيا ، وقد اتخذ اتجاهين :

١ - اتجاه رسمي قامت به الدولة العثمانية لاحباط التحالف البرتغالي - الحبشي .

٢ - اتجاه غير رسمي قام به أحد المغامرين العثمانيين .

بالنسبة للاتجاه الاول فقد قامت الدولة العثمانية بمجهودات عظيمة لاحباط الحلف البرتغالي - الحبشي ، الذي كان موجها أساسا للاسلام والمسلمين سواء في القرن الافريقي أو مركز العالم الاسلامي ، وقد سبق ان ذكرنا بهذا الخصوص بعض المشاريع البرتغالية - الحبشية . من المعلوم ان العثمانيين وصلوا الى جنوب البحر الأحمر متأخرين ، والحلف البرتغالي - الحبشي قائم ، والحرب مشتعلة في القرن الافريقي بين المسلمين والتحالف المسيحي البرتغالي - الحبشي ، ففزع

العثمانيون من ذلك كما ارتاعوا من ازدياد تبادل البعثات بين البرتغاليين والاحباش خاصة بعد عام ١٥٢٠ أي بعد ظهور العثمانيين في البحر الأحمر وكانت أهداف تلك البعثات التعجيل بتنفيذ المشاريع البرتغالية الحبشية الموجهة ضد الاسلام قبل ان يتمكن العثمانيون من توطيد اقدامهم في المنطقة .

هكذا وجد العثمانيون انفسهم وجها لوجه امام تحالف مسيحي في جنوب البحر الاحمر ، وعلى الرغم من ان العثمانيين وجهوا معظم مجهوداتهم العسكرية نحو البلقان ، الا انهم مع ذلك قاموا بجهود جبارة لاحباط التحالف البرتغالي ـ الحبشي معتبرين ذلك واجبا دينيا ، من اجل ذلك تحركوا جنوبا واتخذوا قواعد للانطلاق من بعض الموانىء الآسيوية والافريقية التي خضعت لهم على البحر الأحمر مثل جدة وسواكن ومصوع وزيلع وبربرة وعدن[٣] .

وهكذا أصبح القرن الافريقي مسرحا التقت فيه القوتان العثمانية والبرتغالية بطريق غير مباشر . فبينما استنجدت الحبشة بالبرتغاليين الذين قدموا لهم مساعدات عسكرية سخية في الرجال والعتاد ، استغاث المسلمون في القرن الافريقي بالعثمانيين الذين قدموا لهم عن طريق والي زبيد حوالي تسعمائة من حملة البنادق ، وزودوهم بالمدافع والمعدات العسكرية الاخرى .

وقد تمكن الامام أحمد بفضل المساعدات العثمانية من احراز تقدم ملحوظ نحو داخل الحبشة ، وتوالت عليه الانتصارات على التحالف البرتغالي ـ الحبشي في المراحل الاولى من حربه التي استمرت في الفترة من عام ١٥٢٨ ـ ١٥٤٣ ، الا انه لسبب نجهله حتى الآن انهى علاقاته مع العثمانيين وأرجع القوة العثمانية الى زبيد[٤] .

ويجب ان نشير هنا الى ان انتصارات القوى الاسلامية في القرن الافريقي على التحالف البرتغالي ـ الحبشي في المراحل الأولى من تلك الحرب ، انما يعود ايضا الى ان العثمانيين قد أحكموا السيطرة على البحر الأحمر ، وحالوا دون وصول الامدادات البرتغالية الى الحبشة من قواعدهم في الهند .

مما سبق نرى ان العثمانيين قاموا بدور ايجابي (وإن كان أقل مما كان منتظرا منهم) في نصرة اخوانهم مسلمي القرن الافريقي ، كما نجحوا في احباط التحالف البرتغالي ـ الحبشي الذي كان أساسا يحمل في طياته بعض عوامل فشله .

أما فيما يتعلق بالاتجاه الثاني فقد لعب العثمانيون دورا بارزا في اضعاف الوجود البرتغالي بشرق افريقيا ، ذلك انه على الرغم من ان الدولة العثمانية لم تقم بأية محاولة لتكتيل القوى الاسلامية أو توحيد صفوفهم بشرق افريقيا ـ علما بأن المسلمين هناك كانوا يكنون لها الولاء باعتبارها حامية الاسلام ـ الا ان بعض المغامرين العثمانيين قاموا بمحاولات جادة في زعزعة الوجود البرتغالي في شرق افريقيا مما أدى الى زيادة حدة الصراع بين البرتغاليين والعثمانيين .

ففي عام ١٥٨٦ وصل «علي بك» الى مقديشيو ـ وكان علي هذا قد سبق له أن

هاجم القواعد البرتغالية في الخليج العربي - فادعى انه موفد من قبل السلطان العثماني ليحررهم من الاستعمار البرتغالي واستقبله سكان مقديشيو استقبالاً حاراً وأعلنوا ولاءهم للسلطان العثماني ، وقاموا بالثورة على البرتغاليين ، ووقعت معارك بين الجانبين وانتصر المسلمون فاستولوا على بعض السفن البرتغالية كما تم أسر بعض البحارة البرتغاليين الذين ارسلوا الى القسطنطينية .

بعد هذا النجاح توجه علي بك جنوبا الى براوة وكسمانيو ولامو وفازا وممبسة . وكان يستقبل في كل مدينة استقبالا لائقا برسول سلطان المسلمين ، وبذا تمكن علي بك من اشعال الثورة في كل مدينة حل بها مما أزعج البرتغاليين وهدد وجودهم بساحل شرق افريقيا . ولا ندري الى أي مدى توغل علي بك جنوبا الا انه من المعروف انه عاد الى القسطنطينية وفي حوزته كثير من الاسرى البرتغاليين وكثير من الغنائم[٢٦] .

وفي عام ١٥٨٨ عاد علي بك الى شرق افريقيا تلبية لطلبات تلقاها من سكان الساحل ، الذين وعدوه ايضا بأن يساهموا في تكاليف الحرب ، وظهر بالفعل في ساحل شرق افريقيا أسطول عثماني مكون من خمس سفن ، واستقبل علي بك وأسطوله استقبالا حارا ، وكانت خطة علي بك أن يقضي أولا على مالندي بمساعدة ممبسة ، الا ان سلطان مالندي لم ينتظره وإنما هاجم اسطول علي بك كما طلب سلطان مالندى النجدة من البرتغاليين ، وعلى الفور تحرك اسطول برتغالي لمهاجمة أسطول علي بك في ممبسة ، وفي الوقت نفسه هاجمت علي بك بعض القبائل الافريقية من البر ، فوقع علي بك بين نارين وتمكن البرتغاليون من أسره وتبديد قواته ، وارسلوه الى لشبونة ويقال انه مات هناك بعد ان اعتنق المسيحية .

مما سبق نرى ان المساهمة العثمانية في طرد البرتغاليين من شرق افريقيا لم تكن مباشرة ومع ذلك كانت ايجابية للاسباب الآتية :

١ - كان ظهور العثمانيين في البحر الأحمر عونا معنويا للمسلمين ، كما كان مصدر الهام للمسلمين للقيام بالثورات ضد البرتغاليين واستمرارية هذه الثورات الجهادية لاعتقاد المسلمين هناك بأن الدولة الاسلامية سوف تأتي يوما ما لتحريرهم .

٢ - ساند العثمانيون فعلا بعض القوات الاسلامية وأمدوهم بالسلاح والمعدات كما سبق ان ذكرنا .

٣ - نجح العثمانيون في احباط التحالف الحبشي - البرتغالي وكان ذلك قد ساهم في اضعاف الوجود البرتغالي .

المقاومة الوطنية :

تمثل الثورات الوطنية الاسلامية بشرق افريقيا ضد الحكم البرتغالي ملحمة رائعة من ملاحم الجهاد الاسلامي ، ذلك ان المسلمين في تلك المناطق لم يستسلموا قط للحكم البرتغالي ، بسبب ما كان يمثله ذلك الحكم من تهديد لعقيدتهم وحياتهم السياسية والاقتصادية ، اضافة الى رفضهم اساسا الولاء لحكام غير مسلمين وغيرتهم من المحاولات البرتغالية الرامية

الى نشر المسيحية بينهم . ولولا المنافسات بين السلطنات الاسلامية التي استغلتها البرتغال خير استغلال ، كالمنافسة التي كانت محتدمة بين ممبسة ومالندي ، اضافة الى تجنيد البرتغاليين بعض القبائل ضد المسلمين ، لما تمكنت البرتغال من البقاء بساحل شرق افريقيا طوال تلك الفترة ، ذلك انه لم تواجههم ثورة شاملة وإنما كانت كل سلطنة أو مدينة تقوم بالثورة على حدة بمعزل عن السلطنات الاخرى ولم تؤد محاولات سلاطين ممبسة في التودد الى سلاطين مالندي او تحريضهم لسكان زنجبار وبمبا الى توحيد الصف الاسلامي ، ومع ذلك فلم تخمد الثورات الاسلامية بل ظلت مستمرة مما ارهق البرتغاليين . وكما سبق ان ذكرنا فإن كل تحرك عثماني ضد البرتغاليين كان يؤدي الى اشعال الثورة في منطقة من مناطق شرق افريقيا[١٢] .

وكانت مدينة ممبسة أول مدينة تصدت للوجود البرتغالي وبدأت حركة المقاومة الاسلامية للاستعمار البرتغالي[١٣] . وقد أخمد البرتغاليون هذه المقاومة بعنف وقسوة فأحرقوا المدينة عام ١٥٠٥م ، ومع ذلك واصل سلطان ممبسة كفاحه ضد البرتغاليين ، فكون قوة سواحلية واتصل بسكان زنجبار وبمبا عام ١٥٢٨ للمشاركة في حركة الجهاد ، الا ان هؤلاء خافوا العاقبة فتخلوا عنه فأسرع البرتغاليون الى حصار المدينة مما أدى الى قبول السلطان دفع جزية لملك البرتغال والتعهد بعدم الاتصال بالعثمانيين مقابل فك الحصار .

سبق ان اشرنا الى ان سكان ساحل افريقيا الشرقية قاموا بثورة مع علي بك ضد البرتغاليين ، ولكن بمجرد رحيل علي بك وصل الى تلك المناطق عام ١٥٨٧ اسطول برتغالي قدم من جوا بطلب سلطان مالندي ، فقام البرتغاليون بحركة تأديبية ضد المدن التي تعاونت مع علي بك ، وقاموا بأعمال شنيعة وقاسية لدرجة ان سكان ممبسة اخلوها فدخلها البرتغاليون وهي خاوية ، بينما اضطر شيخ بات الى التذرع بأن الثورة فرضت عليه من قبل العثمانيين ، في حين ان شيخ لامو هرب الى فازا وتبعه البرتغاليون وعاثوا فيها الفساد . أما مدينة مقديشيو فقد قاومت البرتغاليين أشد مقاومة بفضل قوة اسوارها وبسالة سكانها .

وللأسف فإن التفكك كان السبب الرئيسي فيما آلت اليه ثورة سكان مدن ساحل افريقيا ، لأنه كان مصدر ضعف السلطنات الاسلامية ، كما كان في نفس الوقت مصدر قوة للوجود البرتغالي في شرق افريقيا .

وقد استغل البرتغاليون ظروف تفكك السلطنات الاسلامية كما استغلوا المنافسات التي كانت قائمة بين تلك السلطنات مما أدى كثيرا الى وقوع حروب بين بعض السلطنات . ففي عام ١٥٩٢ قام سلطان ممبسة بشن حملة عسكرية على مالندي ، بغرض القضاء على أهم حليف للبرتغاليين وبالتالي توحيد السلطنتين لتكوين قوة عسكرية ، تمهيدا للانقضاض على البرتغاليين . غير انه تعرض لهجوم كاسح من احدى القبائل الموالية لمالندي ، مما ادى الى قتله وأسر ابنائه وبعض قواته وارسل احد ابنائه وكبار المشايخ الى مالندي لتقديم ولاء

الطاعة لسلطانها . وكانت النتيجة ان تمكن سلطان مالندي من ضم سلطنة ممبسة الى ممتلكاته . ثم تم الاتفاق بين البرتغاليين وسلطان مالندي على المشاركة في الغنائم ، بحيث يحق للبرتغاليين بناء الحصون في ممبسة ووضع حاميات عسكرية فيها والاشراف على ايراداتها الجمركية وتوطين البرتغاليين فيها مقابل ان يقيم السلطان في ممبسة ويحكم سكانها ويحصل على ثلث ايراداتها الجمركية [٤٥].

هكذا كانت مالندي حليفة للبرتغاليين مع اختلافهم في الدين والجنس رغبة في الانتقام من ممبسة . وبعد هذه المعارك توجه البرتغاليون الى محاولة ترسيخ اقدامهم في ممبسة ، فشرعوا في بناء حصن ممبسة المعروف بحصن يسوع في الفترة من ١٥٩٣ ـ ١٦٣٠ ، كما اقاموا منشآت للجمارك في المدينة في عام ١٥٩٤ . واتخذوا خطوات ايجابية لتعزيز مركزهم الاقتصادي في ممبسة فأجبروا السفن القادمة من الهند الى اوربا على التوجه اليها ودفع رسوم جمركية تصل الى ٦٪ من واقع ما تحمله السفن من بضائع[٤٦] .

كان حصن ممبسة بداية الاحتكاك بين البرتغاليين وسلطان مالندي ، المدعو حسين الذي بدأ يشكو من عدم حصوله على نصيبه من ايرادات الجمارك بينما اتهمه البرتغاليون بعدم الولاء لهم ، مما ادى الى هروب السلطان من ممبسة عام ١٦١٤ . غير انه اغتيل بواسطة احدى القبائل لقاء رشوة قدمها لهم البرتغاليون كما اسر ابنه يوسف ونقل الى جوا ليربى هناك تربية نصرانية كاثوليكية بعيدا عن بيئته الاسلامية ثم أعيد الى ممبسة عام ١٦٣٠ بعد ان عمد هناك نصرانيا . الا ان يوسف هذا خيب آمال البرتغاليين فيه ليكون عونا لهم على اساس انه مسيحي مثلهم ، اذ انه كان يتظاهر بالنصرانية مخفيا اسلامه ، منتظرا فرصة كي يثأر من البرتغاليين ، حتى واتته هذه الفرصة في اغسطس ١٦٣١ حيث كان البرتغاليون في أحد ايام هذا الشهر يحتفلون باحد اعيادهم في حصن ممبسة . فهاجمهم يوسف على غرة ومعه ثلاثمائة من اتباعه فقضى على كثير من أفراد الجالية البرتغالية وعلى بعض المتنصرين الوطنيين كما قتل بيده قائد الحامية البرتغالية وزوجته وابنته والقس الذي كان يقيم الصلاة[٤٧] .

وكانت نتيجة هذه الحادثة أن تقوى مركز السلطان يوسف كما كانت البداية الفعلية لحرب طويلة ومريرة قادها السلطان ضد البرتغاليين الذين كانوا مصممين ليس لاستعادة مركزهم ، وانما كذلك للانتقام من السلطان يوسف الذي وجه كل جهوده للجهاد المقدس ضد الوجود البرتغالي . وفي نفس الوقت فقد أرسل البرتغاليون حملة عسكرية من جوا الا انهم لجأوا الى المناوشات خوفا من استعدادات السلطان يوسف في الحصن ، ثم عادوا الى جوا ، ولكنهم واصلوا ارسال الحملات حتى تمكنوا من احتلال الحصن بعد ان تركه السلطان يوسف عام ١٦٣٢م . وخلال ذلك اشيع ما يفيد وفاة السلطان يوسف مما شجع البرتغاليين على تنفيذ خططهم ، فأصلحوا الحصن عام ١٦٣٥ ثم قاموا باخضاع الامارات الاسلامية التي كانت

قد انضمت الى السلطان يوسف . وبذلك استعاد البرتغاليون ساحل شرق افريقيا ولكن الى حين لأنه حدث في الساحة الاسلامية أمر هام في تلك الفترة وهو تحرر العمانيين من السيطرة البرتغالية فهبوا لمساعدة اخوانهم في شرق افريقيا مما كان سببا في تصفية الوجود البرتغالي في تلك البقاع الى الأبد كما سيأتي الحديث عنه .

دور عمان فى تصفية الوجود البرتغالى بشرق افريقيا :

خضعت عمان مثل شرق افريقيا للحكم البرتغالى فترة طويلة ابتداء من القرن السادس عشر. ولم يجد الحكم البرتغالى قبولا فى عمان لأسباب دينية وقومية واقتصادية، بل كانت الثورات الوطنية ضد الحكم البرتغالى مستمرة. غير أنه فى عام ١٦٢٤م حدث فى عمان أمر هام كانت له آثاره البعيدة المدى لا فى عمان وحدها وانما فى مناطق أخرى. فى ذلك العام اتحد العمانيون بتنصيبهم ناصر بن مرشد اليعربى اماما للبلاد، وكان هذا الحدث بداية قيام دولة عربية قوية تحملت بأمانة مسئولية الجهاد الاسلامى ضد الوجود البرتغالى، حيث نجحت هذه الدولة الفتية فى عهد حكامها الأوائل خاصة ناصر بن مرشد (١٦٢٤ - ١٦٤٩) وسلطان بن سيف (١٦٤٩ - ١٦٦٨) فى القيام بحركات تحررية ناجحة كانت نتيجتها تحرير عمان وشرق افريقيا.

ولا عجب أن لبى العمانيون استغاثة اخوانهم فى شرق افريقيا، فاضافة الى مشاركتهم معهم معاناة الخضوع للحكم البرتغالى الذى تحرروا منه، فقد كانت بين الجانبين صلات قوية تعود الى عهود قديمة قبل الاسلام، حيث كان المهاجرون العمانيون كغيرهم من عرب الجزيرة، يتوجهون الى تلك المناطق بدافع التجارة أو طلبا للرزق. وتطورت هذه الهجرات بعد ظهور الاسلام. فالى جانب الدوافع السابقة ظهرت عوامل أخرى كانت سببا فى هجرة أعداد هائلة من سكان الجزيرة العربية الى مناطق شرق افريقيا وهى الرغبة فى نشر الاسلام أو الهجرة نتيجة للمنازعات السياسية أو المذهبية [٤٨].

وفيما يتعلق بعمان فان الظروف السياسية التي تعرضت لها فى عهد دولتى بنى أمية وبنى العباس قد دفعت باعداد غفيرة من العمانيين فى الهجرة الى شرق افريقيا، ولعل أهم تلك الهجرات هى هجرة الاخوين سليمان وسعيد بن عباد الجلندى فى الفترة من عام ٦٩٤ - ٧٠٤ [٤٩].

وتوالت الهجرات العمانية بعد ذلك منها هجرة سليمان بن سليمان بن مظفر النبهانى فى القرن الثالث عشر الميلادى. وقد وجد العمانيون فى شرق افريقيا الامان ورغد العيش فساهموا فى الحركة التجارية وازدهار الثقافة الاسلامية وانتشار الدين الاسلامى هناك.

ولا شك أن هذه الصلة العضوية اضافة الى الصلة الدينية كانت وراء اهتمام العمانيين بتحرير شرق افريقيا حتى قبل أن يزيلوا الوجود البرتغالى من عمان نفسها. ففى عهد الامام سلطان بن سيف طلب سكان شرق افريقيا النجدة

من العمانيين بعد أن سمعوا بنجاحهم فى مطاردة البرتغاليين، فلبى السلطان استغاثتهم وأرسل أسطوله الى سواحل شرق افريقيا عامى ١٦٥٠، ١٦٥٢ فهاجمت أساطيله زنجبار وباتا ودمر كثيرا من التحصينات البرتغالية [٥٠].

وكان هذا الحادث عاملا مشجعا للوطنيين للقيام بالثورة ضد البرتغاليين كما كان عاملا مفزعا بالنسبة للبرتغاليين الذين سارعوا بارسال حملة عسكرية بقيادة «كابرا» نزلت بالقرب من باتا وتمكنت من تحرير الاسرى البرتغاليين. وتلا ذلك أن قام البرتغاليون باضطهاد المسلمين والتنكيل بهم انتقاما منهم، وعلى أثر ذلك طلب المسلمون النجدة مرة أخرى من أئمة عمان.

وكان أئمة عمان يعتمدون فى حربهم على قوة عسكرية بحرية يقودها «رجال بحر مدربون خبروا مياه المحيط الهندى على ظهور سفنهم منذ صغرهم [٥١]» وقد قاد الامام سلطان بن سيف أسطوله القوى عام ١٦٦٠ فاستولى على مدن «فازا وممبسة» غير أنه لم يسيطر عليهما لقوة دفاعاتهما، ثم عين السلطان العمانى محمد بن مبارك حاكما على تلك الجهة، وعاد هو مسرعا الى عمان نتيجة لبعض الحوادث التى وقعت فى عمان أثناء غيابه، مما كان له أثر كبير فى تمكن البرتغاليين من الاستيلاء على ممبسة مرة ثانية عام ١٦٦١.

بعد هذه الاحتكاكات الحربية اتخذت الحرب بين عمان والبرتغال بساحل شرق افريقيا طابع اصرار كل منهما على الحاق الهزيمة بالآخر. اذ بينما كان العمانيون مندفعين بروح الجهاد وبخلاوة الانتصارات العسكرية، كان البرتغاليون يستميتون فى الدفاع عن آخر بقايا امبراطوريتهم فى الشرق. ففى عام ١٦٦٩ اتجه أسطول عمانى الى ممبسة وموزمبيق ثم انسحب. وتبعه توسع برتغالى فى الساحل حيث استولوا من جديد على سيو ولامو وماندا وارتكبوا أفظع الجرائم ضد المسلمين، لدرجة أنهم اتخذوا من مسجد باتا [٥٢] اسطبلا لخيولهم، مما دفع الامام سيف بن سلطان الى ارسال أسطول تمكن من تحرير باتا. فانسحب البرتغاليون الى موزمبيق عام ١٦٧٩م. وحررت ممبسه عام ١٦٩٨ بعد حصار دام شهورا عديدة عانى البرتغاليون خلاله كثيرا من المآسى سواء في نقص المؤن أو المعدات الحربية أو في الخسائر البشرية اضافة الى الظروف النفسية التى عاشوها خلال الحصار، خاصة بعد فشل كل المحاولات البرتغالية في فك الحصار مما أدى فى النهاية الى سقوطها في يد العمانيين [٥٣].

وبالرغم من أن تحرير ممبسة قد كلف العمانيين جهدا كبيرا وتضحيات جسيمة الا أنه مع ذلك لم يثبط من اصرارهم على هزيمة البرتغاليين، بل على العكس كان عاملا مشجعا لهم اذ تلا ذلك تحرير بمبا وكلوة وباتا وزنجبار، كما كان عاملا مفزعا بالنسبة للبرتغاليين لأن تحرير ممبسة كان ايذانا بأفول شمس الامبراطورية البرتغالية فى ساحل افريقية الشرقية. وقد تكررت المحاولات البرتغالية لاستعادة ممبسة وذلك فى الأعوام ١٦٦٩، ١٧٠٣، ١٧١٠ حتى اذا كان عام ١٧٢٨ تمكنوا من استعادتها

ولكن بقوا فيها لمدة سنتين فقط ارتكبوا خلالهما أشد الفظائع ضد المسلمين، ولكن لم يستسلم المسلمون لبطش البرتغاليين وانما قاوموا كل المحاولات البرتغالية وصمموا هذه المرة على التحرر النهائي، فقاموا بالثورة وطالبوا بالنجدة من أئمة عمان. وانتهز المسلمون فرصة انشغال البرتغاليين في الاحتفال بأحد أعيادهم فنزلت جموع المسلمين الى الشوارع للانقضاض على البرتغاليين وهوجمت الكنائس واستسلم حصن ممبسة. وفي اثناء ذلك وصلت النجدة العمانية بقيادة محمد بن سعيد المعمورى فاستولى نهائيا على حصن ممبسة وعين نائبا للامام في تلك الجهات.

وهكذا تمكن العمانيون والمسلمون في شرق افريقيا من هزيمة البرتغاليين - سادة الأمس - هزيمة ساحقة في ممبسة وبدأت المناطق الأخرى تخوض غمار الثورة حتى تحررت افريقيا الشرقية في عهد الامام احمد بن سعيد من الحكم البرتغالي وأصبحت المنطقة من خليج دلجادو جنوبا الى مقديشيو شمالا تابعة للحكم العماني(٥٤).

مركز الاسلام بساحل شرق افريقيا والقرن الافريقي قبل مجيء البرتغاليين وحتى الآن :

يحتاج الحديث عن هذا الموضوع الى بحث مستقل وليس غرضي هنا سوى أن أشير اليه مجرد اشارات عابرة موجزة أملا في أن افرد له بحثا خاصا في المستقبل.

من المعلوم انه كانت في شرق افريقيا والقرن الافريقي في العصور الوسطى حضارة راقية مزدهرة، وقد اعترف بذلك البرتغاليون أنفسهم وغيرهم من القوى الاوروبية التي قدمت الى المنطقة فيما بعد، كانت هذه الحضارة شاملة لجميع أوجه الحياة وهي الانتاج العقلي والمادي الذي ساهم في بنائه المسلمون سواء اكانوا أفارقة أو عربا أو فرسا، وكان طابع هذه الحضارة عربيا - اسلاميا على اساس أن لغتها كانت العربية.

لم تقم هذه الحضارة على التوسع الحربي، وانما قامت على المبادىء الاسلامية طبقا للآية الكريمة «ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة». وبذا كانت حضارة سلمية طابعها التفاهم والحوار والاستقرار، وقد قامت نتيجة لذلك مدن أو سلطنات أو دويلات اسلامية على طول الساحل الشرقي لافريقيا الشرقية والقرن الافريقي. ويلاحظ أن هذه الحضارة كانت محصورة في الساحل بالنسبة للساحل الجنوبي من افريقيا الشرقية حيث قامت فيه مدن مثل كلوة ومالندى وممبسه، بينما كانت في منطقة القرن الافريقي أكثر ازدهارا واوسع رقعة اذ امتدت الى داخل الهضبة الحبشية وكانت هناك سلطنات قوية مثل سلطنة مقديشيو أو دويلات قوية أمثال دولة أوفات ودولة عدل (زيلع) التي نقلت العاصمة فيما بعد من زيلع الى هرر(٥٥).

كانت لكل هذه المدن أو السلطنات أو الدويلات نظمها السياسية القائمة على نظام الشورى الاسلامي، كما كان يسود فيها النظام الاسلامي في القضاء والمال

والتجارة والحرب والتعليم.

كانت الحركة العلمية مزدهرة فى كل تلك البقاع، حيث قامت هناك مدن جامعية : مثل مقديشيو وبراوة وزيلع ومركة وكلوة وممبسة. وقد توافد على هذه المدن الجامعية العلماء من بعض انحاء العالم الاسلامى. وأخرجت هذه المدن الجامعية علماء في التفسير والحديث والفقه وعلماء العلوم العربية وحفظة القرآن والكتبة. وكان لهذه الطبقة المثقفة (بلغة العصر الحديث) مركزها السياسى والاجتماعى ودورها الريادى فى نشر الاسلام وترسيخ العقيدة الاسلامية، كما لعبت دورها القيادى للوقوف فى وجه الغزو البرتغالى في الساحل الجنوبى والانخراط فى صفوف المجاهدين وتعبئة المسلمين فى منطقة القرن الافريقى للتصدى للعدوان الحبشى. واتضح دور هذه الطبقة خاصة فى حروب الامام أحمد بن ابراهيم فى القرن السادس عشر.

وبينما الحالة على هذا النحو، أى هدوء واستقرار وانتشار تدريجى للاسلام نحو الداخل فى الساحل الجنوبى وغلبة سياسية وفكرية للمسلمين في منطقة القرن الافريقي، مع انتشار مذهل للاسلام نحو الداخل، تصل الى المنطقة طلائع الغزو البرتغالى فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، فيصبح شرق افريقيا كله مسرحا لحروب صليبية مريرة، ليس مصدرها أوروبا وحدها (كما كان الحال بالنسبة للحروب الصليبية فى بلاد الشام) وانما اوروبا والحبشة معا(وكما يحدث الآن)، فيتعرض الساحل الجنوبى للغزو البرتغالى من البحر ويتم احتلاله، بينما تعرض القرن الافريقى للغزو الحبشى من البر والغزو البرتغالى من البحر، وتمت هزيمة الجيوش الصومالية.

وهكذا فقد الاسلام مركزه السياسى وانتقلت السيادة السياسية الى الصليبيين الذين استهدفوا اقتلاع الجذور الاسلامية من الأساس، واتبعوا فى سبيل تحقيق ذلك سياسة قمعية ضد المفكرين والعلماء والامراء فأصيبت المنطقة كلها بجمود فكرى وتوقف حضارى. ولكن لحسن الحظ يشاء الله ما لم يكن فى حسبان الصليبيين فنتيجة للاضطهاد لجأ عدد كبير من علماء المسلمين الى المناطق الداخلية فانتشر الاسلام هناك وانتعش وأصبحت المناطق الداخلية بمرور الزمن مصدر المدد البشرى المسلم لمقاومة المحتلين. ولما تحررت المنطقة من الحكم البرتغالى زادت المسئوليات الملقاة على عاتق المسلمين، وبدا المسلمون يعوضون ما فاتهم عمله في السنوات التى عاشوها تحت الكابوس البرتغالى، وبدأ الدعاة فى لم الشمل من جديد للجهاد السلمى لنشر الاسلام، وتحرك الاسلام نحو عمق القارة فوصل الى موزمبيق وسفالة ونياسالاند وكينيا وتنجانيقا وأوغندا وهضبة البحيرات والى داخل الحبشة وبدأت المراكز الحضارية الساحلية تنتعش من جديد فى تخريج الدعاة، والعلماء، وحفظة القرآن، وأئمة المساجد. وانتشر الدعاة فى كل مكان فى الداخل وبنيت المساجد ومدارس القرآن ومراكز علوم الدين والعلوم العربية.

ومرة أخرى بينما الحالة على هذا النحو السالف الذكر فى شرق افريقيا

يصل الى المنطقة غزاة اوروبيون جدد : المان ـ انجليز ـ ايطاليون ـ فرنسيون يأبون أن يبقى سكان المنطقة أحرارا، فيتقاسمون المنطقة ويصبح الساحل الجنوبى من نصيب بريطانيا، ويتفقون على تفتيت الجسم الصومالى الى خمسة أجزاء، فتحتل بريطانيا أقصى جنوب الصومال وتضمه اداريا الى كينيا ليصبح فيما بعد جزءا من كينيا، كما تحتل منطقة شمال الصومال، وتحتل ايطاليا جنوب الصومال، كما تحتل ارتيريا. وتحتل فرنسا أقصى شمال الصومال، وتحظى الحبشة بمكانة الدولة الممتازة كما كانت فى العهد البرتغالى ويهدى لها الصومال الغربى أى (الأوجادين) مكافأة لها لدورها الصليبي فى المنطقة. وهكذا مرة أخرى فقد المسلمون فى شرق افريقيا دورهم الريادى السياسى وحتى الآن.

وبعد أليست هذه الحالة نتيجة لحروب صليبية تقوت بقدوم البرتغاليين ثم الانجليز والايطاليين والفرنسيين وهي مستمرة حتى الآن ؟ والا ما معنى ما حدث للصومال من تفتيت وما معنى ما يحدث للاسلام الآن فى تنزانيا وكينيا من مسخ، وابادة جماعية للمسلمين في اوغندا، وما يحدث للمسلمين في الصومال الغربى أو ما يحدث لمسلمى الحبشة وما معنى ما حدث ويحدث للمسلمين فى ارتيريا من ابادة وتشريد، ثم ما معنى ما يحدث الآن فى جنوب السودان. ثم بماذا يفسر المركز الخاص الذى كانت وما زالت تتمتع به الحبشة قديما وحديثا من لدن الدول الأوروبية. غربية كانت أم شرقية اضافة للولايات المتحدة الامريكية ؟

ومرة اخرى أليست هذه حروب صليبية؟. نعم على الاقل طبقا لوجهة نظرنا نحن أبناء المنطقة.

الصحراء الكبرى
الهند
بلاد العرب
الحبشة
الصومال
المحيط الهندى
المحيط الاطلنطى
العرب ونشاطهم فى شرق أفريقيا

رحلات الرحالة الكشفية
الأطلسي
المحيط
الهندي

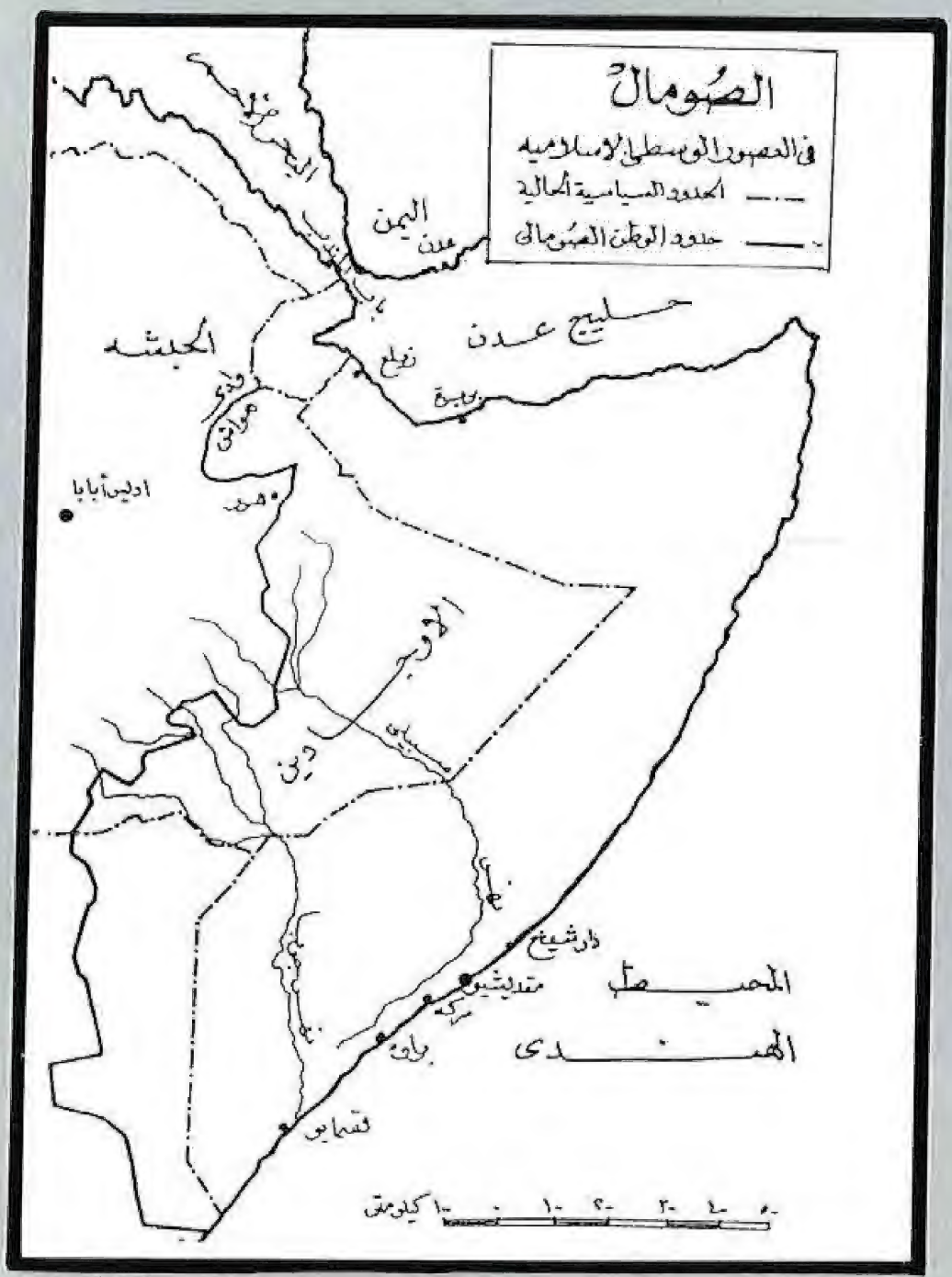
الصومال
في العصور الوسطى الاسلاميه
الحدود السياسية الحالية
حدود الوطن الصومالي
اليمن
عدن
حليج عدن
الحبشه
زيلع
بربرة
وادي هواش
هرر
اديس أبابا
الاوجادين
دار شيخ
مقديشيو
مركه
براوه
قسمايو
المحيط الهندي
كيلومتر

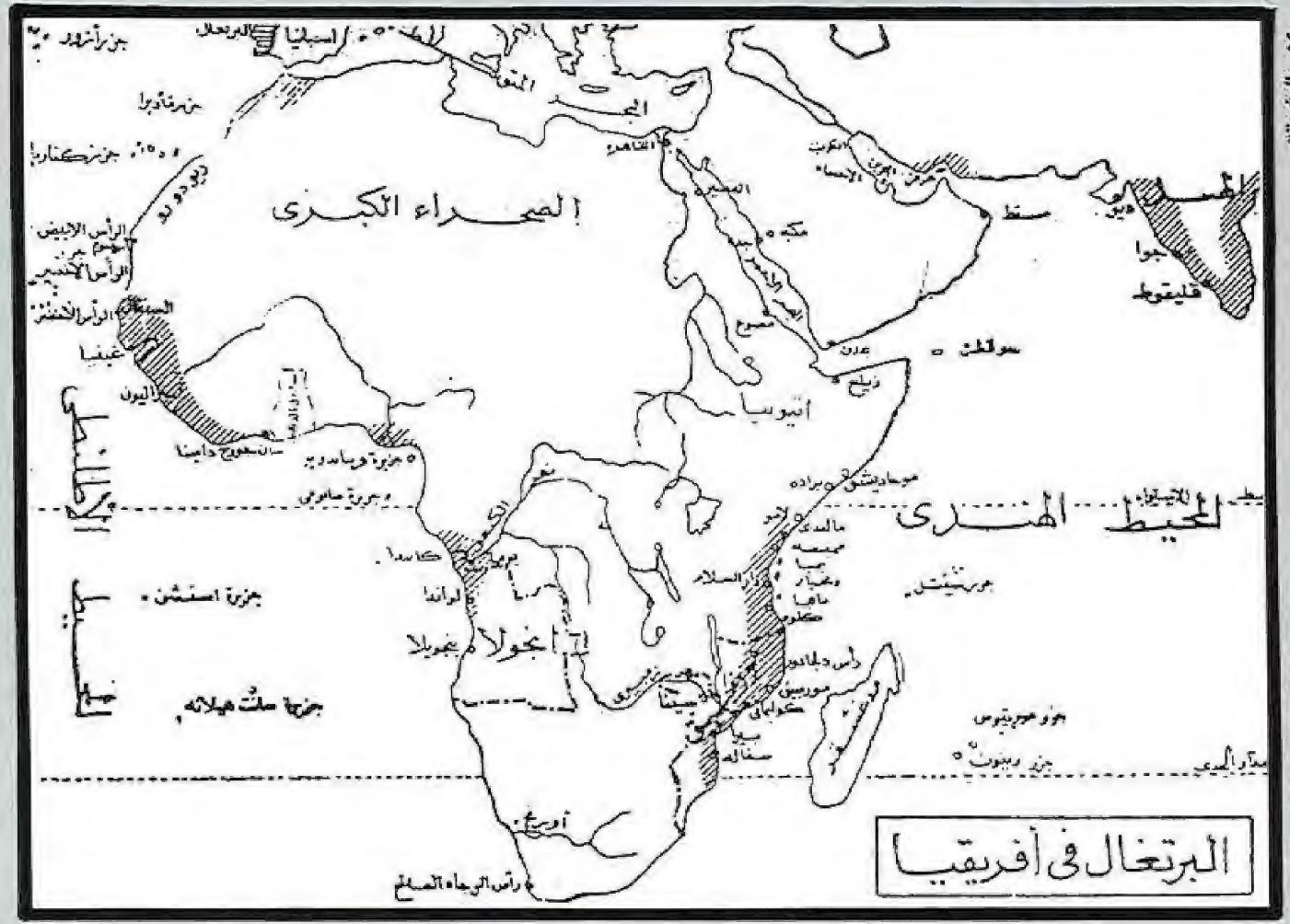
البرتغال فى أفريقيا
الصحراء الكبرى
المحيط الهندى
اسبانيا
البرتغال
جزر أزور
جزر مادبرا
جزر كناريا
ريو دورو
الرأس الابيض
الرأس الاخضر
غينيا
سان جورج دامينا
جزيرة فرناندو
جزيرة صاوتى
جزيرة اسنشن
جزيرة سانت هيلانه
كاندا
لواندا
انجولا
بنجويلا
أورنج
رأس الرجاء الصالح
القاهرة
مكة
مصوع
عدن
زيلع
اثيوبيا
مسقط
جوا
قليقوط
موزمبيق
كولمبو
سفاله
جزر رينون
جزر موريتوس
مدار الجدى

الهوامش

١ - د . عبدالعزيز عبدالغنى ابراهيم - علاقة ساحل عمان ببريطانيا ، ص ١٧ ، دارة الملك عبدالعزيز ، الرياض ، ١٩٨٢ .

٢ - د . جلال يحي - تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر ص ٧٢ ، المكتب الجامعى الحديث - الاسكندرية - ١٩٨٤ ، انظر كذلك
E,W. Bovill – The Golden Trade of Moors, P.91

٣ - نوال حمزة يوسف الصيرفى - النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى فى القرنين ١٠هـ/١٦م ، ص ٦٩ ، الرياض ، ١٩٨٣ .

٤ - د . محمود متولى ود . رأفت الشيخ - افريقيا فى العلاقات الدولية المعاصرة ، ص ١٤١ ، دار الثقافة - القاهرة .

٥ - نوال حمزة - مصدر سابق، ص ٦٨ .

٦ - المصدر السابق ص ٦٦، لمزيد الاطلاع على دوافع البرتغال الدينية انظر : شوقى الجمل - تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ص ١٣١ ، ط ٢ مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٠ . وكذلك د . محمود متولى ود . رأفت الشيخ - مصدر سابق، ص ٣٣ - ٣٧ .

٧ - نوال حمزة - مصدر سابق ، ص ٦٧ .

٨ - د . سيد مصطفى سالم - الفتح العثمانى الاول لليمن (١٥٣٨ - ١٦٣٥) ص ٦٣ ، ط ٣ ، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٨ .

٩ - د . عبدالعزيز عبدالغنى ابراهيم - مصدر سابق، ١٨ .

١٠ - د . السيد رجب حراز - افريقية الشرقية والاستعمار الاوروبى ص ١٣، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨ . ونوال حمزة مصدر سابق ص٧٠ .

١١ - نوال حمزة - مصدر سابق ص ٧٢ . لمزيد الاطلاع عن البعثات الدينية البرتغالية الى الحبشة انظر : ممتاز العارف - ارتيريا بين احتلالين ص ٥٥ ، دار الجاحظ ، بغداد .

١٢ - لمعرفة حوادث هذه الحرب انظر كلا من : -
أ - عرب فقيه (شهاب الدين احمد عبدالقادر بن سالم بن عثمان

الجيزانى) : تحفة الزمان (فتوح الحبشة) . الجزء الاول . وقد عاصر هذا المؤلف احداث الحرب ووصفها وصفا دقيقا وموضوعيا .

ب ـ د . رجب محمد عبدالحكيم ـ العلاقات السياسية بين مسلمى الزيلع ونصارى الحبشة فى العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٥ .

١٣ ـ نوال حمزة ـ مصدر سابق ص ٧٨ .

١٤ ـ د . محمود متولى ود . رافت الشيخ ـ مصدر سابق ، ص ٥٤ .

١٥ ـ بحوث مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ، ج ٢ ، ص ٦٢٤، الدوحة ١٩٧٦ .

١٦ ـ د . حسن ابراهيم حسن ـ انتشار الاسلام فى القارة الافريقية، ط٣ ، ص ١٧٦، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٤ .

١٧ ـ د . محمود متولى ود . رافت الشيخ ـ مصدر سابق ، ص ٣٣ ـ ٣٥ .

١٨ ـ المصدر السابق ، ص ٤٦

١٩ ـ د . السيد رجب حراز ـ مصدر سابق ص ١١ ـ ١٢ ، وانظر كذلك : كتاب العلاقات العربية الافريقية، دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار ص ٦٣ ، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٧ .

٢٠ ـ د . حسن ابراهيم حسن ـ مصدر سابق ـ ص ١٧٧ .

٢١ ـ نوال حمزة ـ مصدر سابق ـ ص ٩٥ .

٢٢ ـ د . السيد رجب حراز ـ مصدر سابق ـ ص ١٤ .

٢٣ ـ المصدر السابق ـ ص ١٥ .

٢٤ ـ د . حسن ابراهيم حسن ـ مصدر سابق ـ ص ١٧٨ .

٢٥ ـ صلاح الدين حافظ ـ صراع القوى العظمى حول القرن الافريقى، ص ٥٣ ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٨٢ .

٢٦ ـ د . السيد رجب حراز ـ مصدر سابق ـ ص١٥ .

٢٧ ـ يرد اسمه فى كل المصادر هكذا : الامام احمد بن ابراهيم الملقب بـ «جرين» اى «الاشول» وهو خطأ ناتج من خطأ فى ترجمة كلمة "GUREY" الصومالية التى تطلق على الاشول ، وترجمتها بالعربية حرفيا هى «جُرَى» وليست «جرين» او «غرين» ولذا وجب التنويه .

٢٨ ـ مجلة دراسات افريقية، ص ٥٥ ، العدد الاول، ابريل ١٩٨٥ ، المركز الاسلامى بالخرطوم، وانظر كذلك : ندوة البحر الاحمر فى التاريخ والسياسة المعاصرة ـ ص ٢٣٨ ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٩ .

٢٩ ـ العلاقات العربية الافريقية ـ مصدر سابق ـ ص٦٦ .

٣٠ ـ د . السيد رجب حراز ـ مصدر سابق، ص١٥ .

٣١ ـ د . حسن أحمد محمود ـ الاسلام والثقافة العربية فى افريقية، جـ١ ، ص

٤٧٦ ، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣ .
٣٢ ـ صلاح الدين حافظ ـ مصدر سابق ـ ص٥٤ .
٣٣ ـ ج.ج لوريمر ـ دليل الخليج . القسم التاريخي، الجزء الاول، ص٦٤٣ ، الدوحة ، ١٩٧٦ .
٣٤ ـ نوال حمزة ـ مصدر سابق ـ ص١٨٦ .
٣٥ ـ د . حسن احمد محمود ـ مصدر سابق ـ ص٤٧٧ .
٣٦ ـ صلاح الدين حافظ ـ مصدر سابق ـ ص٥٤ .
٣٧ ـ بحوث مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ـ مصدر سابق، ص٦٤٣ .
٣٨ ـ المصدر السابق ـ ص٦٥٠ .
٣٩ ـ المصدر السابق ص ٦٤٧ ، د . شوقي عطا الله الجمل ـ دور مصر في افريقيا في العصر الحديث ، ص ١٠٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤ .
٤٠ ـ د . حسن احمد محمود ـ مصدر سابق، ص٤٦٦ ، العلاقات العربية الافريقية ـ مصدر سابق ـ ص٧٥ .
٤١ ـ ندوة البحر الاحمر ـ مصدر سابق ص٢٣٨ ـ قيل ان الامام انهى علاقاته مع العثمانيين لسببين : ـ
أ ـ تذمره من مطالبات الجنود العثمانيين الكثيرة في الغنائم .
ب ـ غضب الدولة العثمانية لقتله القائد البرتغالي، وكان العثمانيون يريدون ان يسلم لهم وهو حي حتى يستفيدوا منه في معرفة الخطط البرتغالية الحربية في الحبشة .
٤٢ ـ العلاقات العربية الافريقية ـ مصدر سابق ـ ص٧٣ .
٤٣ ـ د . حسن احمد محمود ـ مصدر سابق ـ ص٤٧٨ .
٤٤ ـ د . السيد رجب حراز ـ مصدر سابق ـ ص ١٨ .
٤٥ ـ المصدر السابق ـ ص٢٠ .
٤٦ ـ المصدر السابق ـ ص٢١ .
٤٧ ـ المصدر السابق ـ ص٢١ .
٤٨ ـ المسح الشامل ـ مصدر سابق ص ٦٢ .
٤٩ ـ بحوث مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ـ مصدر سابق ص٧٧٦ . ومجلة دراسات افريقية . العدد الثاني، ص ٨٣ ، المركز الاسلامي بالخرطوم/١٩٨٦ .
٥٠ ـ بحوث مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ـ مصدر سابق ص٧٨٣ .
٥١ ـ جلال يحي ـ مصدر سابق ـ ص٢٠٥
٥٢ ـ بحوث مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، مصدر سابق ص٧٨٥ .
٥٣ ـ العلاقات العربية الافريقية ـ مصدر سابق ـ ص٨٤ .

٥٤ ـ المصدر السابق ـ ص٨٥ ، دونالد وندتر ـ مصدر سابق ـ ص١٤٨ .

٥٥ ـ ١ ـ كلوة وجزيرة زنجبار وتوابعها فى جمهورية تنزانيا الحالية .

٢ ـ مالندى وممبسة ولامو فى كينيا .

٣ ـ مقديشيو ، براوة، كسمانيو، زيلع، بربرة فى جمهورية الصومال الديمقراطية .

٤ ـ هرر عاصمة الصومال الغربى المحتل من قبل الحبشة .

المراجع

١ ـ د . السيد رجب حراز ـ افريقية الشرقية والاستعمار الاوروبى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٨ .

٢ ـ د . السيد رجب حراز، ارتيريا الحديثة (١٥٥٧ ـ ١٩٤١) معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٤ .

٣ ـ جامعة عين شمس ـ البحر الاحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة (سمنارات الدراسات العليا للتاريخ الحديث) ، القاهرة ١٩٨٠ .

٤ ـ ج.ج. لوريمر ـ دليل الخليج، القسم التاريخى، الجزء الاول، اعداد قسم الترجمة بقصر الدوحة، قطر .

٥ ـ د . جلال يحي ـ تاريخ افريقية الحديث والمعاصر، المكتب الجامع الحديث الاسكندرية ، ١٩٨٤ .

٦ ـ د . جلال يحي ـ مصر الافريقية والاستعمار الاوروبى فى القرن التاسع عشر، دار المعارف، الاسكندرية .

٧ ـ دونالد وتدنر ـ تاريخ افريقيا جنوب الصحراء . ترجمة راشد البراوى مكتبة الوعى العربى، القاهرة .

٨ ـ و . جون فيج ـ موجز تاريخ افريقيا، ترجمة دولت صادق ومحمد السيد غلاب .

٩ ـ حمدى السيد سالم ـ الصومال قديما وحديثا (جزءان)، وزارة الاستعلامات الصومالية، مقديشيو ، ١٩٦٥ .

١٠ ـ د . حسن ابراهيم حسن ـ انتشار الاسلام فى القارة الافريقية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٤ .

١١ ـ د . حسن احمد محمود ـ الاسلام والثقافة العربية فى افريقية، الجزء الاول، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣ .

١٢ ـ مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية (بحوث المؤتمر ـ الجزء الثانى)، الدوحة ـ قطر، ١٩٧٦ .

١٣ ـ د . محمد عبدالعال احمد ـ البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية الاولى

للسيطرة عليه ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، ١٩٨٠ .
١٤ ـ د . محمود متولى ود . رافت الشيخ ـ افريقيا فى العلاقات الدولية المعاصرة ، دار الثقافة، القاهرة .
١٥ ـ ممتاز العارف ـ ارتيريا بين احتلالين، دار الجاحظ ، بغداد، ١٩٧٩ .
١٦ ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ المسح الشامل لجمهورية الصومال الديمقراطية ، بغداد ، ١٩٨٢ .
١٧ ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ العلاقات العربية الافريقية ، دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار، القاهرة، ١٩٧٧ .
١٨ ـ نوال حمزة يوسف الصيرفى ـ النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى فى القرنين العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى ، دارة الملك عبدالعزيز الرياض، ١٩٨٣ .
١٩ ـ د . سيد سالم مصطفى ـ الفتح العثمانى الاول لليمن (١٥٣٨ ـ ١٦٣٥) ط٣ ، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٨ .
٢٠ ـ عبدالمجيد عابدين ـ بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربى، القاهرة .
٢١ ـ د . عبدالعزيز عبدالغنى ابراهيم ـ علاقة ساحل عمان ببريطانيا، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٩٨٢ .
٢٢ ـ عبدالرحمن النجار ـ الاسلام فى الصومال ، المجلس الاعلى للشئون الاسلامية، القاهرة ، ١٩٧٣ .
٢٣ ـ عرب فقيه (شهاب الدين احمد عبدالقادر بن سالم بن عثمان الجيزانى) ـ تحفة الزمان او فتوح الحبشة ، الجزء الاول ، تحقيق فهيم محمود شلتوت، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ .
٢٤ ـ د . فاروق عثمان اباظة ـ عدن والسياسة البريطانية فى البحر الاحمر (١٨٣٩ ـ ١٩١٨)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦ .
٢٥ ـ فتحى غيث ـ الاسلام والحبشة عبر التاريخ ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة .
٢٦ ـ صلاح الدين حافظ ـ صراع القوى العظمى حول القرن الافريقى، عالم المعرفة الكويت، ١٩٨٢ .
٢٧ ـ د . رجب محمد عبدالحليم ـ العلاقات السياسية بين مسلمى الزيلع ونصارى الحبشة فى العصور الوسطى، دار النهضة العربية القاهرة، ١٩٨٥ .
٢٨ ـ شارل اندريه جوليان، تاريخ افريقيا، ترجمة طلعت عوضى اباظة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٦٨ .
٢٩ ـ د . شوقى الجمل ـ تاريخ كشف افريقيا واستعمارها، ط٢ ، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٥ .

٣٠ - د. شوقى الجمل - دور مصر فى افريقيا فى العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤ .
٣١ - E,W Bovill – The Golden Trade of The Moors, Oxford Un. Press.
٣٢ - الدارة (مجلة)، العدد الثانى ، السنة العاشرة، دارة الملك عبدالعزيز الرياض، سبتمبر ١٩٨٤ .
٣٣ - دراسات افريقية (مجلة)، العدد الاول، ابريل ١٩٨٥، المركز الاسلامى الافريقى بالخرطوم .
٣٤ - دراسات افريقية (مجلة) ، العدد الثانى، ابريل ١٩٨٦ ، المركز الاسلامى بالخرطوم .